مختارات فصول

٨٥

خيري شلبي

لحس العتب

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

(٨٥)

الغلاف للفنان
عماد حليم

خيري شلبي





الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

ليست هـذه الترابيزة العجيبة هى كل ما تبقى من آثار العز والنغنغة التى كانت تتمتع بهما ديارنا ذات يوم بعيد • فهناك صيت الزعالكة نفسه وهو وحده يكفى لجلب الاحترام عند كل من يسمعه • وهنـاك أعمـامى الكثـار الذين تكاد تتشـكل منهم ومن أبنائهم وأبناء أبنائهم وبناتهم بلدة كبيرة جدا تسمى بالزعالكة لا يسكنها مخلوق واحد لا ينتهى اسـمه بزعلوك • كما أنه ليس فى العب كله من لم يحلم بالزواج من بنات الزعالكة أو يزوج بناته من شبان الزعالكة • وهنـاك أبى نفسـه ، الحاج عبد الودود زعلوك الذى عشق العلم فتعلم حتى شهادة عالمية الأزهر الشريف ، ثم خلع عمامة العلم واشتغل بالفلاحـة وتجارة الحبوب ، نفس مهنة أبيه التى عيشته كالبرنس وكونت له ثروة هائلة تقاسمتها قبائل من أولاده •

غير أن أبى لم يكن فى براعة جدى ولا حصافته ونصاحته ،

ولا قدرته على التحويش والادخار . الا أنه يرمى الذنب كله على اتضـاع الزمن ونذالة الأيام وكثرة العيال ، فكل ذلك قد أتى على كيس نقرده نسـار مخزن الحبوب يتناقص حتى بات لا يحتوى على قوتنا الضرورى . فأصبحنا نشترى القمح والذرة والشعير من تجـار كانوا صبيانا عند أبى ذات يوم ، ونستقضى اللبن والسمن والجبن من أقاربنا الميسورين . أما أن يمد أبى يده ليأخذ من أحدهم قرش تعريفه واحد فهذا ما يعتقد أن الموت أهون عليه منه ، لأن أحدا من الزعالكة لا ينبغى له أن يشحذ حتى ولو كان يشحذ من أخيـه ابن أمه وأبيـه . ثم ان أبى لا يشجع الشحاذة أصلا حتى بالنسبة للعاجزين عن الكسـب فما بالك بالأصحاء ؟ ولذا فقد عاش أبى مرهوب الجانب حتى وهو يشترى الحبوب ـ لأكلنا ـ بالكيلة .

وهناك ـ فوق ذلك ـ دارنا هذه التى ورثها أبى وحده باعتباره أصغر الأعمام الكبـار الذين ورثوا قبل ازدياد عدد الوارثين . وهى دار لا تخطىء العين عراقة أصلها . وهناك بعد ذلك الستر ؛ فالداخل الى مندرتنا لابد أن يجد كنبة عتيقة مفروشة بالحصير الملون والمساند ، ويجد كرسيا عباسيا بصينية نحاسية توضع فوقها صينية الشاى الذى سيجىء له بعد دخوله بدقائق ولابد أن يتكلم مع أبى فى تأدب شديد مهما كان مركزه ، ويقول

له : « يا آبا الحاج » ، هو يعنيها بالفعل لا مجرد مجاملة : وأن يحادث أبى كما لو كانت الثروة ما تزال تغرقنا والجاه ما يزال يتوجنا ، ولابد أن يتردد المثل السائر : ان ذبل الورد تبقى رائحته فيه : أكثر من مرة •

وبقدر ما كان ذلك يرضى غرورى آنا واخوتى فانه كان يحنقنا ، اذ أن اخوتى كلهم ــ وأنا من بينهم ــ لم نر من هذه الثروة ولا من هذا الجاه شيئا ، أى شىء ، بل لقد كان يساورنا شك خفى فى أن يكون أبى ــ هذا الجلف الخشن الغليظ الصوت ، والرقبة والملامح والأطراف ــ كان ذات يوم من الأيام ابن عز ، فنحن لم نره الا وهو يأكل القديد والمش فيحمد الله ويقبل يده ظهرا لبطن ثم يبرم سيجارة كعود الكبريت يعفرها فى استمتاع ، ويقضى النهار والليل بالفانلة والسروال والصديرى وفى آخر الليل يتمدد على كنبة فى المندرة متوسدا حشية من القش متغطيا بحرام متهرىء • لا يشتغل سوى يوم واحد فى الأسبوع هو يوم سوق البلد ، حيث يخطف رجله الى السوق من صبيحة ربنا ، ليحشر نفسه بين باعة الحبوب والبذور والمحاصيل مختلقا لنفسه سمسرة من البائع والمشترى ، على السواء بصنعة لطافة معجزة لا يقدر عليها سواه •

معظم الأشياء الثمينة التى ورثها أبى عن جدى قد فرطنا

فيها بشكل أو بآخر ، لسبب أو لآخر ، مع أن كل شيء فرطنا فيه لم نفرط فيه بسهولة ، انما يصير شغلنا الشاغل لشهور طويلة تتخللها مفاوضات واستشارات من أبى لبعض أقاربه ، بل واستخارات يلجأ فيها الى الله بقراءة آية الكرسى وسورة يس قبل النوم لكى يرى فى المنام حلما يدله على الفعل الصحيح بايعاز من الله • لكن الأشياء تسربت فى النهاية ، ولم يبق من معالم تاريخنا أثر حى الا هذه الترابيزة العجيبة ، ولهذا رفض أبى أن يفرط فيها بأى ثمن •

هى ترابيزة مستطيلة مما يسميه الناس فى بلدتنا بترابيزة الوسط ، أى التى أعدت لكى توضع فى المندرة بين الجالسين ، ليمتد فوقها الطعام والشاى • كبر حجمها يؤكد أنها أعدت لعائلة كبيرة ذات مندرة كمندرتنا • طولها يزيد عن مترين وعرضها يزيد عن متر ونصف المتر • شكلها يدل على صنعة متينة متقنة ، شغل يدوى ، بأرجل مخروطية عليها نقوش وانبعاجات وتكورات تنتهى فوق الأرض بأقدام على شكل حوافر من النحاس ان تأملتها قليلا تبينت أنها على شكل سباع كثيفة الشعر غليظة الأظافر ، ظللنا لسنوات طويلة تتوهم أنها من الذهب • أما خشبها فنوع غريب جدا لم نعرف له اسما ، ولكن رائيها يتصور لأول وهلة أن عملية نقلها من مكانها يلزمها عشرة رجال

على الأقل لكى يتمكنوا ــ فقط ــ من زحزحتها ، وكم كان مبهجا وطريفا أن يحاول أحدهم اختبار ثقلها فاذا هو يفاجأ بأنها خفيفة كالنكتة البريئة ، واذا هو قادر وحده على رفعها والسير بها لولا طولها وعرضها • هى مع ذلك متينة كالحديد الصلب ، ناعمة الملمس كالحرير •

وهناك هناك فى أبعد ركن فى ذاكرتى أكاد أرانى طفلا فى حوالى الثالثة من العمر أرتع زحفا على سطح هذه الترابيزة رائحا غاديا فى زأطلة وعمتى تلاحقنى لاهثة وأمى تباشرنى من كل ناحية حتى لا يأخذنى حماس اللعبة فأنكفىء على الأرض • أيامها ــ فيما أذكر ــ كانت شبابيك المندرة مفتوحة على الدوام من نصفها الأعلى ، حيث تنقسم كل ضلفة الى قسمين أحدهما سفلى وهو الأطول والآخر علوى وهو الأصغر ، فاذا انفتح النصف الأعلى لم يتمكن المارون فى الشارع من رؤية الجالسين فى المندرة • حينئذ يندهن شكل الضحى بلون السماء الصافية ، وما أسرع ما تفوت الشمس غارقة فى خجل الحياء تاركة فوق الحائط المواجه بقعة من دمائها كالكرة الحمراء تظل تضيق وتضيق الى أن تمحوها ظلال المغيب ، هذه الظلال التى باتت تسكن المندرة منذ سنوات طويلة ، منذ أن كفت مندرتنا عن استقبال الضيوف المهمين من الأغراب والتجار

الكبار ، فبقيت الشبابيك مغلقة على الدوام الا ضلفة من الشباك البحرى لكى يدخل الهواء الطيب لأبى ، الذى لايزال يهوى النوم ظهرا فوق الكنبة التى تحت هذا الشباك مباشرة ، ويقضى معظم الليل فوقها يقرأ الأوراد والتسابيح ويستقبل بعض أعمامى وعماتى العجائز ، وشلة من أصدقاء قدامى .

***

والواقع أننى لست أذكر متى رحلت هذه الترابيزة من وسط المندرة الى الخزنة الملحقة بها . هى حجرة مستطيلة كالسرداب يفصل بينها وبين المندرة جدار من الخشب البغدادلى . لها بابان أحدهما يفتح على المندرة والآخر يفتح على دهاليز الدار حيث تحف به بعض القاعات المهجورة ، ودويرة الفرن وتعريشة الكنيف تحت السلم الطينى . قيل ان هذه الخزنة كانت بمثابة محطة يتوقف عندها الطعام القادم من مكان ما فى الدار قبل أن يقدم للضيوف الجالسين فى المندرة ، حيث يتم ترتيب الأطباق وتعديل أشكالها وأوضاعها ، وحيث توضع كميات احتياطية جاهزة على الفور عندما يشعر المراقب للآكلين أن طبقا من الأطباق قد فرغ ، فيرفعه ليضع مكانه بدلا منه فى الحال . ولقد طوى أمرها مع أمر الترابيزة حين لم يعد لكليهما ضرورة تذكر .

حتى هذا لم أعد أذكره الا لمـاما ، انما أذكر ــ منذ وقت بعيد جدا ــ أن هـذه الترابيزة قد احتلت ركنها هـذا من هذه الخزنة ، وقد وضعت فوقها تلال من أشياء تنوء بحملها الجبال وتضيق باحتوائها دار بأكملها ، أكياس من قطن تنجيد وسخ مخلوط بالتراب والحصى وفتات الخرق والخيوط البالية كانت فى الأصل مراتب وألحفة ووسائد منذ سنين بعيدة •• صفائح كبيرة لتخزين الملوخية الناشفة والحلبة الحصى وزيت وسكر التموين ، تضـاف اليها وفوقها صفائح أخرى لتخزين كعك العيد •• صندوق خشبى من صناديق الصـابون النابلسي يمتلىء بأشياء لا حصر لها من متروكات ومهملات ، صواميل ، مسامير ، غطيان كازوزه ، ظرف ساعة جيب قديم ، مغزل ، نحلة ، فردة حلق بلاستيك ، شباشب قديـة متآكلة ، زجاجات عطر فارغة تختلط رائحتها العتيقـة بروائح الرطوبة والتراب والعفن فتزكم الأنوف برائحـة زنخـة • لم يكن أحد يحب التقليب فى هذا الصندوق الا عند الضرورة القصـوى ، ولهذا كانت أمى تخفى فيه بعض القروش التى تبيع بها بيض الدجاج ، أو طورة بلح مما اشتريناه يوم سوق مضى تدخرها لأخى الغائب فى شغل الترحيلة • فلما انكشف أمر الصندوق صارت تخفى الأشياء بين الكراكيب العديدة ، حيث يصبح من المستحيل على أى منا أن يرفع هذه الكراكيب الثقيلة ــ وبعضها ثابت راسخ

فوق بعضه البعض من سنوات وسنوات ــ لكى يبحث تحتها أو بينها عن شيء مخفى •

أمى هى الوحيدة التى تستطيع ــ فى غفلة منا ــ أن تسرب يدها بين الأشياء خلسة لتعود بالشيء المطلوب فى لمح البصر • كثيرا ما كان أبى يفاتحها فى اقتراض ثمن ورقة دخان لف ، فاذا هى تنكر صائحة :

ــ « منين ؟ النبى أشرف خليقـــة الله ما احتـــكم على ريحتها » !

حينئذ يركز أبى بصره القوى فى عينيها صائحا :

ــ « يا مره ، يا مره بطلى كهن وبزى بقرشين » !

فاذا هى تشوح له ناحية الترابيزة قائلة فى ثقة :

ــ « الدار عندك اهه قوم دور فيها » !

وليس أبى مجنونـا بالطبع لكى يقوم ويبحث فى هـذه الغابة عن ابرة ، فيسلم أمره لله ويسـكت • فى السـابق كان يفعلها ، فيقوم وينكت الدنيا يقلب عاليها سافلها فوق الترابيزة فلا يجد شيئا •

أما تحت الترابيزة فالأمر أشد وأنكى : ركام لا حصر له من أشياء قديمـة بالية لا لزوم لها على الاطـلاق ، ومع ذلك لا أحد يعرف لمـاذا نحتفظ بها ؟ ولمـاذا تتركها تحتل هـذا المكان ؟ ولطالمـا تساءلت هل نحتفظ بها لوجود هـذا المكان ؟ أم لقيمة معينة فيها ؟ أم أن هذه الأشياء من تلقاءنفسها زحفت تحت الترابيزة واختبأت لتنجو بنفسها من شدة اصرارنا على استعمالها حتى وهى مفككة أو ذائبة أو مهملة أو صـدئة . الذى أنا متأكد منه أن أى شيء يزحف تحت الترابيزة أو يسقط سهوا فانه يكون قد ووری تحتها الى الأبد ، ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تكتشف المكان الذى سقط فيه هـذا الشيء أو ذاك . ومع ذلك فانـا لا يحلو لنا عد القروش أو فحص بيض أو فعل أى شيء ، من هـذا القبيل الا على الجزء المتبقى من فراغ الترابيزة . وقد تعود الواحد منا أن يمسك الشيء بأعصاب متوترة ، فما أن يرتبك أدنى ارتباك حتى يسقط الشيء من بين يديه ، فيندفع الواحد منا فى الحـال وراءه منقضا عليه قبل زحفه تحت الترابيزة ، ولكن عبثا ، انه لابد أن يكون قد اختفى فى لمح البصر ، اذا كان قرشـا فقد فر ، ليستقر فى منعطف مجهول ، وان كان فردة حلق فان الأرض تنشق وتبلعها ، وان كان فردة حمام أو دجاجة فان أيدى الجن نفسه لن تفلح فى

الامساك بها بل لن تعرف فى أى ركن تختبىء ، الا أن تخرج هى بمزاجها بعد انتهاء المطاردة ، وربما تعطلت عن الخروج نهائيا . وان حاول أحد أن يقل عقله وينحنى غاطسا تحت الترابيزة فى محاولة يائسة للبحث فانه سيشعر من أول نظرة أن الأمر مستحيل ، سيرى غابة من : بقايا محراث قديم من أيام ما كنا فلاحين نملك أرضا ، مع بعض فأس وبعض كريك وعجلات مشرشرة من مخلفات نورج قديم هرم ، وبرذعة تشهد أن كان لدينا ركوبة توصلنا ، وفردة رحاية وضعنا زميلتها كمسند لزير المياه منذ صار فى بلدتنا ماكينة للطحين ، وطشت غسيل نحاس كان ذات يوم عزيزا الى أن تآكل قعره فصار مجرد اطار كالمنخل التحم بالأرض واشتبك بأشياء أخرى ، وميزان حدادى كبير بلا كفات يقال أننا كنا نزن عليه اللحوم المشتراه أو التى نوزعها فى عيد الضحية ، وحطام صندوق ملابس كان من شوار أمى واحتفظت به لاصلاحه لكنه تشتت قطعا قطعا . وهناك الى ذلك براريض وقباقيب وأجولة وغير ذلك من أشياء فقدت شكلها واسمها وأصلها فباتت مجرد أشياء .

أى رجل من عائلتنا أو أى زائر يضطر للدخول الى هذه الخزنة يصيح أبى من خلفه محذرا اياه فى جدية بالغة :

ـ « ايــاك والاقتراب من الترابيزة ! والا فلو وقعت تحتها فنحن غير مسئولين عنك » !

وحينمـــا زاد عدد أفراد عائلتنـــا واقتسموا الدار ضاقت بنا القاعات وتزايد عدد اخوتى فصرنا ننام فى هذه الخزنة ، نفترش حصـــيرا تآكلت أطرافه وبقع كثيرة من وسطه فبرزت خيوط الدوبارة من كل ناحية وصارت تشبك فى أصابع أقدامنا وتلتف عليها كلما تقلبنا أو تمددنا • كانت نومتى تجىء دائمـــا فى الطرف بجوار الترابيزة ، فأظل طول الليل منكمشـــا على نفسى خشـــية أن يزحف على مجهول قـــادم من تحت الترابيزة يقرصنى أو يلحسنى أو يأكلنى • فان تقافز فأر أو خنفســـاء بجوار رأسى فزعت • أما ان لمس أذنى أو أصبعى فاننى أنتفض فى الحال صارخا لأظل جالسا فى موضعى بقية الليل أرتعش • تتقلب أمى النائمـــة تحت أقدامنا متوسدة ذراعها ، تقول من خـــلال نومهـــا : « مالك يا وله » ، فأقـــول باكيـــا : « فيه حاجـــة كانت بتلحس فى » فتغفو من جديد قـــائلة : « قول باسم الله الرحمن الرحيم ونام ! » • ولربما انتفضت هى الأخرى فى الحـــال نافضـــة ساقها بذعر خفى ، فأعرف أن ذلك المجهول الغامض قد لامسها عند مروره • وحين تستيقظ هى فى الليـــل وترانى جالسا أحزق من الخوف ، تتزحزح ناحيتى وتأخـــذنى

فى حضنها حتى أنام ، ولكن منطقة تحت الترابيزة تبقى طول الليل فوهة يفح منها الخطر الخبيث المخادع •

* * *

عندما التحقت بمدرسة البلد لم يمض عامان حتى أصابنى مرض غريب حار فى فهمه حلاق صحة البلد ، لكنه سلمنا بعض أقراص صغيرة صفراء تسمى « الكينين » وأوصى بأن آخذ قرصا بعد الأكل ثلاث مرات يوميا • فما فعلت هذه الأقراص شيئا سوى أنها صبغت بياض عينى بلون الاصفرار الكابى ، وهدلت كل أطرافى ، فصرت أقضى النهار كله جالسا القرفصاء فوق الكنبة العتيقة فى المندرة ، آكل أطباق الأرز باللبن وأشرب الليمون حتى كرهت طعم الحلاوة فانقلبت فى حلقى الى مرارة دائمة • وان هى الا أيام قليلة حتى لحق بى أخى خالد ، فانضم الى جوارى على الكنبة مصفر العينين والوجه بارز عروق الرقبة •

مكثنا على ذلك طويلا ، حتى بات منظرنا مألوفا كأنه جزء من هذه الكنبة • وصار ضيوف أبى يسموننا المتهمين ، اشارة الى جلستنا القرفصاء معا لا نفعل شيئا ولا نتكلم ولا نبتسم ولا نبكى كأننا فى انتظار حكم سيصدر علينا بعد قليل • غير أن هؤلاء الضيوف الذين أشبعونا تريقة ومسخرة هم الذين

نصحوا أبى بضرورة الذهاب بنا الى مستشفى البندر أو الى الحكيم ، ويا حبذا لو كان الحكيم هو « ألبير فهمى » الشهير فى بنـدر دسـوق الذى يذهب اليـه كل مريض فى بلدتنـا فيشـفى .

ولم يكن أبى فى حاجة الى هـذه النصيحة ، انما كان فى حاجة الى قرشين لكى ينفذها فى الحال . وكان كلما استمع الى هذه النصيحة ينظر الينا فى أسى شديد ؛ ويهز رأسـه قائلا فى عشم كبير :

ـ « ان شاء الله ! ان شاء الله حاوديهم لأكبر حـكيم فى البنـدر » !

فلما تكررت نصيحة الضيوف وازداد ثقلها عليه ، هز يده فى غضب مكتوم وقال من بين شفتيه فى هدوء شديد :

ـ « يا أسـيادنا هو الحـكيم ده مش حياخد فلوس ؟ ولا حيكشف عليهم لوجه الله » ؟ !

واعتبر أنه بذلك قد خرج عن طوره وفقد أعصابه ، اذ أنه أضاف بنفس الهدوء :

ـ « متأخذونيش اذا كنت اتنرفزت عليكم » !

فانبرى عبد الفتاح الزيات قائلا من خلف الجرنان المفرود أمام وجهه :

ـ « يا عم شـوف لك صرفه فى الترابيزة دى ! تمنهـا ممكن يعالج لك العيال » !

وكان يقرأ فى الصفحة الأخيرة ، أما الصفحة الأولى فقد كانت مفرودة أمامنا مباشرة ، وكلمة : المصرى ، بالخط الثلث الكبير ، غاطسة فى العلم الأخضر ذى الهلال والنجوم ، وتحتها عنوان كبير بعرض الصفحة بالحبر الأسـود يشير الى اختفاء هتلر فى ظروف غامضة . قرأه محمد مصباح الجالس بجوارنا وقـال :

ـ « يعنى يا خويه الحاج محمد هتلر مش باين له حس ولا خبر ! يكونش بيدبر فرتينه جديدة » ؟

ووجدتنى أنطق لأول مرة بعد شهور طويلة قائلا :

ـ « ده موت نفسـه ! انتحر عشان الناس ما تشمتش فيـه » !

هنا أزاح عبد الفتاح الزيات الجرنان عن وجهه ونظر لى فى دهشة منذهلة . وجاراه فى هـذه النظرة محمد مصـباح

ومحمود جميل وعلى بتوش ورمضان ابن عمتى ، الذى كان متربعا أمام الوابور متوليا سلطنة الشاى • أبى كذلك نظر فى زهو شديد . وفى زهو أشد قال :

ـ « يا عم دا فخرى ابنى عارف الحقيقة ! أقطع دراعى ان ما كان اتنحر فعلا » !

وكانت الأكواب الزنك الصغيرة قد ارتصت أمامهم فراحوا يشفطون الشاى منها بصوت عال وقد اندمجوا فى تفكير عميق ، فى صمت لا يخدشه سوى صوت الشفط وصوت الوابوريون باعثا الأنس الجميل فى قعدة العصارى التى تمتد الى ما بعد منتصف الليل • وكنت أستطيع أن أرى خلف جلد وجوههم أفكارهم التى ينغمسون فيها ، وأراها من خلال وجه أبى الذى راح ينقل البصر بينهم خلسة كأنه يعرف مقدما أن مؤامرة تدبر ضده لانتزاع الترابيزة على وجه التحديد •

انهم جميعا من الأعيان المحدثين ، الذين كانوا منذ سنوات قليلة من الناس العاديين ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية فحولتهم الى أعيان لا حاجة بهم الى الشغل •

فعبد الفتاح الزيات كان بقالا صغيرا من عائلة كبيرة العدد كلها من الفلاحين ذوى القراريط والفدان ونصف الفدان ،

ومنهم عدد كبير من الأجرية والأنفار . ومنذ عودته من الجندية مرفها ناسيا أمر الفلاحة باع فدانه الملك وافتتح بثمنه الدكان ، وحشره بأنواع البضـائع ، وملأ مخزنا كبيرا ببراميل الزيت وصفائح السمن .

الناس فى بلدتنا معظمهم لا يملك النقود معظم أيام السنة ، ولذا فانهم يشترون حاجاتهم بالأشياء ، أو على ذمة محاصـيل قادمة . فأنت تدخل الدكان وتشترى باكو دخان أو باكو شاى بأربع أو خمس بيضـات . والمرأة تشترى الفلفل والشـطة والكمون والخيط والطماطم والخضروات بحفنـات من الأرز أو القمح . كوب المـاء الكبير الذى يوضـع فوق الزير هو العيـار السـائد ، هـذا الشىء بكوب من الأرز الأبيض أو بكوبين . وبائع القلل والبلاليص أو بائع البلح الحيـانى أو أى بائع سريح ، قد يقطع البلاد طولا وعرضـا بحمـاره ليعود فى نهاية الرحلة وقد جمع رسماله أرزا وفولا وشـعيرا وقمحا وبصـلا وبيضـا ، ليبيعها بدوره للتجار المتخصصـين فيكسب فروق سعر تعوضه المشقة .

عبد الفتاح الزيات جمع من البيع محصولات كثيرة قـام بتخزينها كى يبيعها للتجـار جملة ، فأدركته الحرب فارتفعت الأسعار خمسة أضعاف ، فصار هو يبيع هذه المحاصيل بالقطاعى

للآكلين بسعر السوق السوداء ، ليصبح بين عشية وضحاها من أغنياء الحرب الذين تتفرج على صورهم المكعبرة فى جريدة البعكوكة التى يشتريها ورقا يبيع فيه البضاعة . ولقد اعرض قفاه ، وانتفخت ملامح وجهه المستطيل واحنفظت مع ذلك بتناسقها ، مما جعل البريق فى عينيه السوداوين يضفى عليه شبابا فات أوانه ، وجاذبية تستر ذلك الأوان . غير أنه لا يرفع عينيه فى امرأة الا مخفوضتين ، واذا خاطب النساء خاطبهن بأدب جم : يا خاله فلانة ، يا جدتى علانة ، يا أم فلان . كذلك يخاطب الرجال برفق شديد كأنهم جميعا أطفال يسايسهم . لا يحتد لسانه فى أى مناقشة حتى لو كانت تمس أخطر أمور حياته ، لا يحتد الا عند الكلام فى السياسة ، اذ هو مغرم بالسياسة كأنها مزاج وكيف يتعاطاه بلذة فائقة . وان جاءت سيرة هتلر أو موسولينى أو النحاس باشا أو سعد زغلول أو غيره دب النشاط فى عينيه وارتعش كيانه وتأهب للخوض فى أجمل حديث فى الدنيا . وهو الى ذلك يعرف القراءة لكنه لا يعرف الكتابة ، يقرأ الجرنان بطلاقة ويعجز عن كتابة جواب . وأزيد من دفتر الشكك لا كتابة عنده ، حيث القلم الكوبيا المربوط فى الدفتر بدوبارة يحرث فوق الورق أخاديد ومنبعجات فى شكل أرقام وأسماء ، وهى مجرد رموز لا يقرأها سواه . الأغرب من ذلك أنه خطيب سياسى مفوه ، كل نواب الدائرة يسعون

لكسبه ، ثم انه رئيس لجمعية تعاونية شارك فى تكوينها — ضمن جمعيات كثيرة — لكى تعاون الفلاح والعامل . يجتمع أعضاؤها فى مندرته ، يستقبلون أندية وعمالا من كفر الدوار والمحلة الكبرى ودسوق ، يخطبون ويتكلمون كلاما كبيرا عن الوعى العمالى وجهل الفلاح وساعات العمل والاستعمار والصهيونية . ودائما نظيف الثياب كأنه يغيرها مع صلاة كل فرض .

أما محمد مصباح فانه من كبار التجار وان كان لا يفتح دكانا ولا مخزنا ولا يقتنى عمالا ، هو يملك الفلوس فحسب ، لا ليصرفها بل ليدخرها . أنت فلاح شاطر وسيرتك حسنة ويلزمك بقرة تدور فى الساقية وتدر لبنا ؟ هو يشتريها لك من سوق الشين ويتركها عندك لتقوم أنت بالعلف والرعاية ويكون له نصف ما تدره البقرة من لبن ونصف ما يباع من خلفتها . أنت رجل صاحب مصاريف ويلزمك فلوس أو لا قدر الله وقعت فى أزمة مفاجئة ؟ محمد مصباح يقرضك على المحصول . عند الحصاد يجمع محصولا أكبر من محاصيل الفلاحين ، يبيعه للتجار وهو فى الأجران . فلما قامت الحرب صار يجمع المحاصيل فى مكان خفى ليبيعها بالكيلة والقدح زاعما لدى كل بيعة أن هذه الكيلة أو هذا القدح هو آخر ما عنده .

هو مكلبظ الوجه أحمره ، غليظ الشفتين ، يوحى منظره بأنه أكل لتوه ديكا روميا . وذلك صحيح ، فانه يموت فى الأكل . وقد تعود بيته أن يرسل اليه البرام المعمر حيث يجلس فى أى دار ، فلا يتورع عن تشمير ذراعيه ليأتى على البرام كله فى دقائق . والمعمر دائما حمام لأن لديه أبراجا كبيرة كثيرة . وقد تعود أصدقاؤه أن يتقبلوا ذلك بصدر رحب . وكثيرا ما تتطوع أمى بتقديم طبق من اللفت والليمون والباذنجان المخلل مع أن الرجل مفتوح النفس من حاله . ويتطوع واحد منا فى الصباح بتوصيل البرام الى داره ، وقد يرجع بفردتى حمام على سبيل الهدية . فما أن ينتهى هو من الأكل حتى يمسك بالجوزة ليشرب كرسى الدخان فى بطء شديد ، حيث تنتفخ عروقَ رقبته وينزرد وجهه ، ويتلمس أى سبب لينفجر ضاحكا بصوت صاعق رنان كصوت جرس الكنيسة ويصير رأسه كالكرة الملتهبة يتقافز فوق عنقه التخين . هو كذلك مغرم بالنكتة ، وكل نكته سياسية همجية قد لا يفهمها السامع ولكنه مع ذلك يضحك ربما من شدة هيافتها . مغرم كذلك بشراء الأشياء بالشروة ، عمره ما اشترى من الشىء شيئا واحدا : العنب بالقفص وربما بالأقفاص ، والطماطم بالمشنة ، والسمك بالجنبة كاملة ودون ميزان شرط أن يعطيها ولا يطيل الفصال حتى لا يراها أحد فينظرها . ومرة صادف فى الطريق

رجلا يبيع القباقيب ، فاشترى منه الكمية كلها . فظل أبى شهورا طويلة يسخر منه ويقترح عليه أن يشارك عليها الفلاحين ، ومن حين لآخر يسأله عن صحة القباقيب ، مع أن الرجل تبرع بها فى النهاية لمساجد البلدة لينتفع بها المصلون عند الوضوء .

وأما محمود جميل فانه فى الأصل نجار سواقى شاطر ، دقرم ، يفهم فى كل شىء ، يحب الابتكارات الجديدة حبا جنونيا . ما أن يرى آلة جديدة ذات فكرة طريفة حتى يعكف عليها فلا يهدأ له بال حتى يعرف فكرتها ، كيف تدور وكيف تعمل وعلى أى طريقة ركبت ، ثم لا يلبث حتى يفعل مثلها أو شيئا شبيها بها . كان يتفنن فى صنع دواليب الملابس للأعيان ، بأشكال زخرفية متقنة يأخذها من بعض المجلات ، يبتكر لها مفصلات عملية ومقابض عاجية وكوالين تختفي تماما . كذلك كان متخصصا فى صنع الحقائب للمدرسين والتلاميذ ، من الأبلكاش المدهون . وقد اخترع ذات يوم مرجيحة الصناديق ، ولا ندرى أين رآها ، لكننا ذات يوم عيد طلعنا القرافة وتجولنا فى السوق المقام فى سفحها احتفالا بالعيد ، ففوجئنا بصرح حديدى منصوب فى الأرض ، كقاعدة لطارتين كبيرتين مثل ترس الساقية ، وعدد من الصناديق الملونة ترتفع فى الهواء لتهبط وتختفى برهة لتعود فترتفع وهكذا . فى كل صندوق يجلس طفل أو أكثر يصيح من الغبطة . كل أطفال

البلدة وشبانها وبعض رجالها الهايفين ركبوا مرجيحة الصناديق يومها • ثم انها باتت ملمحا رئيسيا فى يوم العيد من كل عام •

وهو أول من اشترى ماكينـة للتذريـة بدلا من المذراة اليدوية ، عبارة عن بضع مناخل فوق بعضـها داخل صـندوق خشبى ، لها حنـك مفتوح على الدوام ينفث تراب القشرة ، ومنه نرى المناخل رائحة غادية تحت بعضها فى حركات متعاكسة ، ولها فتحـة على السطح كالقادوس يدلق فيها القمح المدروس بترابه ، ولها كذلك مؤخرة منبعجة من الصـاج النظيف ذات فتحة كالشرم ينزل منه القمح النظيف خاليا من القشرة ، يستأجرها الفلاحون بالنقود أو بالمحصـول ؛ حتى اغتنى ، ووسع ورشته فغدت كالجرن ، وسافر الى دسـوق فتعرف على كبار تجـار الأخشـاب ، وحول ورشـته الى شادر يمتلىء بجميـع أنواع الأخشـاب من ألواح ومرائن وعروق ، وسـواق كاملة بكل معداتها الخشبية والحديدية ، وجميع أنواع الحدايد والكوالين والمسامير والمفصلات والأقفال والدرافيل ، لم يدفع ثمن كل ذلك بالطبع ، انما دفع مبلغا يسيرا جدا للتاجر الكبير ، على أن يدفع الباقى مقسطا تقسيطا مريحا • ما كاد يفعل ذلك حتى قامت الحرب ، وعزت الأشياء ، فأخفى البضـائع وصار يبيعها بأغلى الأسعار ، وكل بضعة شهور نسمع أنه اشترى فدانا من فلان الفلانى ؛ أو اشترى حصانا من علان ابن ترتان • ثم ما يلبث

حتى يبيع ما اشترى ، وسرعان ما ينكشف حاله ويبدو مفلسا لفترة قد تقصر أو تطول ولكن الفلوس لابد أن تستأنف جريانها فى يديه من جديد • والجميع يعرف أن الأفيون الذى يمص جسده على الدوام يمص كذلك نقوده على الدوام • وسواء كان مفلسا أو فى رغد فانه لا يلبس الا كالح الثياب . وأحيانا يمضى فى شوارع البلدة بالفانلة ذات الكم الطويل وفوقها الصديرى : مع السروال أبو دكه بشراريب ، حاملا عدة النجارة : المنشار معلق فى كتفه النحيف ، والقادوم والشاكوش والفارة فى يديه •

طويل كالنخلة الفارعة ، مربرب : مستطيل الرقبة والوجه : بملامح صلبة صارمة لوحتها الشمس وأحرقت بياضها القديم وصبغت عينيه الملونتين بظلال كابية • يلبس فوق رأسه المدبب طاقية من الصوف الملون طويلة كالكأس • فى مشيته ايقاع صعود وهبوط معا ، حيث يرتفع صدره مع كتفيه ويديه ليهبط بين كل خطوة والتى تليها ، كمشية المصارع يدب نحو خصمه متنمرا متحينا فرصة للانقضاض • الشعر الكثيف يغطى أسفل ساقيه كالوبرة • فى شفتيه غلظة وشهوانية ينمان عن ثور هائج شرس مخفى فى قاع بعيد جدا من عينيه اللتين ان ركزهما فى امرأة خرت فى الحال واعتراها خجل وارتباك • اذا ضحك مد بوزه وفشخ حنكه بصعوبة ، لتبرز أسنانه الأمامية الكبيرة

مصبوغة بلون الشاى وسـواد التدخين الذى لا ينقطع لدرجة أنه ـ فيما يشاع ـ يصحو من النوم ـ اذا نام ـ فى موعد كل سيجارة ليشربها باخلاص ونهم ، وقيل ان احظات نومه طول حياته هى اللحظات الخاطفـة التى يغفو فيها بين كل نفس من السيجارة والذى يليه •

زئر نساء كبير • النـاس تحيك حوله حكايات لا تنتهى أبدا ، معظمها قد تصبح كذبة من أول اشـارة ، لكن الجميع مع ذلك وبرغم ذلك يسـتلطفون الحـكايات ويستحسنونهـا فيحكونها على سبيل التندر والطرافة ، فيصدقها السذج الأغرار ويرددونها باعتبارها قد حدثت بالفعل ، وربما بالغ أحدهم وسرح بخيال الآخرين فيؤكد لهم أنه شاهد عيان ، كان عائدا من الحقل ذات فجرية قمرية فاذا به يرى شبحـا عند بحر السـبيل •• الخ الخ ، أو أنه كان ذاهبـا يصـلى الفجر فمر من الحـارة الفلانية فرأى شبحا يتسلل فى الخفاء خارجا من البيت الفلانى •• الخ الخ • ولقد شـهدت ميلاد معظم هذه الحكايات فى مندرتنا فى عمق الليل على ايقاع الجوزة وصوت غليان الشاى فى البراد فوق منقد النار ، وصـوت الضحكات الصافية التى تنفلت فجأة مدوية بعد طول همس وودودة غامضة • رغم ذلك فأبى يخشاه بينه وبين نفسه ، لا يؤامنه على دخول دارنا فى غيبته أو غيبة أحد من أبناء عمومتى الكثيرين جدا والذين لابد أن تنشق

الأرض عن أحدهم حال قدوم أى ضيف أو زائر يطرق بابنا أو باب دار من دورنا أيا كانت شخصية الزائر ، اذ لاشىء فى نظرهم يسمى صديق العائلة ، كما أنه لا وكالة عندهم بغير بواب • ولو ظهرت أمى عفوا ، أو ظهر طيفها من باب الدهليز فيما هم جالسون فان ليلتها تكون أسود من شعر رأسها ، نبيت كلنا فى نكد وعياط يسبقه ضرب مبرح ، فما بالك لو بلغهم صوتها فى المندرة ضاحكا أو متكلما أو حتى باكيا ، ان صوت المرأة عورة وانها اذن للكارثة العظمى • ولا تكون العورة عورة بحق وحقيق الا فى حضور الرجال ، وعلى وجه التحديد فى حضور محمود جميل ، الذى أراح الناس أنفسهم فى النهاية وأشاعوا أنه قد خاوته جنية •

المثير لدهشتى أنه أكثر حميمية لأبى دون غيره من أصدقائه الذين يسهرون معه فى المندرة كل ليلة • يكون دائما آخر من ينصرف قبل وصول الفجر بساعة • ولم أكن أجد لذلك تفسيرا سوى أنه يجيد القراءة ، وبصره حديد ، يقرأ فى ضوء المصباح نمرة خمسة كما يقرأ فى الظهيرة • فى حين أن أبى ضعيف البصر بحكم الطعن فى السن وان ظل قوى البدن كثور وأسعد اللحظات فى حياته هى تلك التى يختلسها من بقية أصدقائه قبل قدومهم وبعد انصرافهم ، حيث ينظر الى محمود جميل نظرة ذات معنى ، يتبعها بقوله : « مش حنخلص أبو زيد

من الأسر ؟ ! » ، فيمد محمود جميل يده الطويلة السرحة المغطاة بالشعر وقشف العمل الدائب ، الى طاقة الشباك المجاور، ليسحب الجزء الكذا من السيرة الهلالية ويبدأ فى القراءة من حيث توقفا ليلة أمس حينما وقع أبو زيد الهلالى أسيرا • أبى وهو لاشك يعرفان هذه السيرة سطرا سطرا ويعرفان أن أبا زيد سوف يحدث له كذا وكيت بالتفصيل ، ومع ذلك فلا حد لمتعتهما وهما يستقرئان ذلك مثنى وثلاث ورباع دون ملل • أرضية الشباك كانت حافلة بعنترة وذات الهمة وسيف بن ذى يزن وحمزة البهلوان وألف ليلة وليلة وروايات جرجى زيدان عن تاريخ الاسلام ، من عذراء قريش الى شارل وعبد الرحمن والمملوك الشارد وأرمانوسة المصرية وفتاة غسان وفتاة القيروان ، وكتاب شمس المعارف الكبرى وكتاب تفسير الأحلام لابن سيرين ، ومصاحف كاملة وأجزاء من مصاحف ، وتفسير الجلالين وصحيح البخارى • ولقد شاهدنهما يقرآن فى كل ذلك بعدد شعر رأسى من الليالى الطوال •

الوحيد الذى كان يجاريهما فى حب الاستماع بنفس الحماسة هو الشيخ على بقوش أو الشيخ كعبلها كما يسمونه فى مندرتنا وفى بعض أنحاء البلدة • ذلك أنه أعمى العينين مغلقهما تماما ، عيناه كبؤرتين خزقتهما أصابع مجهولة ، ثم التأمت جراحهما فانغلقتا وبقيت شفرة الجرح خطا أحمر فى كل

عين • حين يقرأ القرآن يفرد كفه واضعا ابهامه فى أذنه ونبصره فى احدى العينين كأنه يضغط على أزرار يخرج على أثرها صوته ، اذ ينتفخ عنقه وهو يحزق ، وتربد ملامحه وتنضغط فى بعضها حتى ليكاد يخرج عن الوجه وجه آخر • صوته قبيح جدا الى حد لا يمكن احتماله لبرهة واحدة ، وربما لهذا السبب وحده يتقبله الناس ويستمعون اليه درءا للشعور بالحرج ، بل انهم يغدقون عليه من أوصاف الاستحسان ما قد لا يحظى به أصحاب أجمل الأصوات • يعيش على قراءة الرواتب فى البيوت حيث يتنقل من بيت الى بيت ، ليجلس فى المكان المعهود فيقرأ سورة أو بعض سورة ، ثم يصدق وينصرف ، فى مقابل بعض كيلات من المحاصيل الزراعية عند الحصاد ، ناهيك عن أيام الخميس والجمعة والأعياد ، اذ يطلع القرافة لقراءة القرآن على أرواح الموتى ويعود محملا بأجولة من العيش والقرص والتمر والخروب ، مع بعض قروش •

يمشي بجنبه ، جنب الحائط ، متحسسا الأرض بعكازه الأعوج • كل السكك والشوارع مرسومة فى دماغه خطوة خطوة ، يعرف جيدا ــ وبحنكة ــ متى يحود فيحود ، ومتى يستقيم فيستقيم ومتى سيصادف صخرة أو رحاية ثابتة فى الأرض أو مصطبة أو معجنة طوب فى الطريق ، فيتفاداها بكل

دقة ، فى حين ربما ستنط فيها المبصرون • يسكن فى حارة ضيقة متعرجة تبعد عن دارنا بشـوارع كثيرة متداخلة متفرعة • مع ذلك يحرص على المجىء الى مندرتنا كل ليلة مهما كان البرد قارسا ، وحتى فى عز اشـتداد المطر ، حيث تصبح بلدتنـا بحرا متعدد الشـوارع والحارات من الطين السائل والروبة الزرقـاء • كنا نفاجأ به يطرق الباب طرقـات تنافس صـوت الرياح الصرصر العاتية التى تعصف فى الخـلاء بأحمال القش والحطب فوق أسطح الدور ، صوت كحته المميزة يختلط بصوت الطرق فنعرفه فنفتح له على الفور•واذ ينفتح الباب تعقد الدهشة ألسنة الجميع ، اذ نرى أن العوص لم يلحقـه بأكثر مما لحق المبصرين ، مجرد طين فى حذائه الميرى ذى الرقبـة والرباط ، الذى اشتراه من مخلفات الجيش ، فلا يكون عليه آكثر من أن يخلعه ويسنده على عتبة المندرة من الخـارج ويدلف داخـلا يسبقه صوت السلام عليكم ، ثم يأخذ سمته الى الركن الذى اعتاد الجلوس فيه • فان طالت الدقائق الزمنية وافتقد صوت أحد من أعضاء القعدة الليلية الدائمـة الدافئة سأل عنه فى الحال • فان قيل له ان المطر قد منعه فانه يرفض التصـديق ويختلق له عذرا آخر قد يكون السبب فى منعه ، وربما تطوع بالذهاب لسحبه •

وكانت القعدة تضم ضريرا آخر هو الشيخ زيدان زيدان الحاصل على شهادة العالمية من الأزهر الشريف . ويسمونه فى بلدتنا بالقاضى ، لأنه كان يحكم فى مسائل الزواج والطلاق حتى لا يكلف الناس مشقة الذهاب الى المحكمة فى البندر ، اذ ما يكاد الخلاف ينشب بين رجل وزوجه ، أو بين خاطب ود وصهره ، حتى ترتفع الأصوات صائحة : « بينا ع الشيخ زيدان القاضى ! نعرف راى الشرع ! » ، وفى هياج وثرثرة من جانبهم ، وصبر وطول بال من جانبه ، يتمكن من معرفة كل صغيرة وكبيرة فى الموضوع بل يتمكن من معرفة الأسباب الحقيقية للخلاف وهى فى العادة تكون مخفية وراء أسباب أخرى تبدو قوية وداعية للخلاف بالفعل ، وحينئذ ينطق بالحكم الصحيح المناسب ، فلا يجرؤ على معارضته أحد ، ولا يستطيع التشكيك فى ذمته ، لأنه فى العادة لا يتقاضى أجرا على ذلك ولا يقبل حتى كلمة شكر ، بل انه قد يحكم لصالح أحد الطرفين ثم ينهال عليه لوما وتقريعا وتأنيبا ، فهو فى الواقع غير محتاج للأجر ، ويعيش من ريع ثلاثة أفدنة ورثها عن أبيه ويفلحها أولاد عمه .

وجوده كان ضروريا فى القعدة ، لأنه بمثابة القاموس السياسى والتاريخى والدينى . ان غاب عن لسانهم اسم زعيم

فعل كذا ، فانه يسعفهم به فى الحال مقرونا بيوم الفعل وتاريخه. وان غمضت عليهم مسألة دينية حول الصلاة أو الصوم أو الحج أو الحلال والحرام فانه يفتيهم فى الحال • بلسان الشيخ المراغى والشيخ بخيت والشيخ الخضر حسين • فان لم يقتنع القوم فابن تيمية أو الامام الشافعى أو على بن أبى طالب • هو صاحب ذاكرة تبدو لى أحيانا كأنها صندوق سحرى ملىء بمئات المبصرين من عمال يمدونه فى الحال بمعلومات لا نهاية لها ، حتى انه كثيرا ما ينسيهم الكتب ويستقل بالحديث ربما طول الليل ، فى سليمان الحلبى وكيف قتل الجنرال كليبر ، عن الشيخ الدرديرى وكيف تحدى الأمراء المماليك وهزمهم ، عن الخيول الفرنسية التى دهست سجاجيد الصلاة فى صحن الأزهر ، عن عمر مكرم ، عن المغاربة والأفارقة والهنود والشوام من مجاورى الأزهر أصحاب الأروقة • أما ان تطرق الحديث الى أحمد عرابى وثورة ١٩١٩ وسعد زغلول ورفاقه فان أبى سرعان ما يصادره فى الحال ، مدافعا عن أرضه التى يخبرها جيدا ، ثم يتملك دفة الحديث فلا يجد من يراجعه فى شىء •

الشيخ زيدان زيدان لم يكن فى صلابة الشيخ بقوش كعبلها ولا جرأته ، اذ يكفى أن يسمع من يقول : الدنيا ناويه تمطر ، لكى يمتنع عن الخروج من البيت أو ينهض فجأة يطلب من يسحبه الى أول الشارع العمومى ـ شارع داير

الناحية ــ وفى معظم الليالى الممطرة كان الشيخ بقوش يصر على الذهاب الى دار الشيخ زيدان زيدان ليسحبه ويجىء به الى مندرتنا لولا أن الشيخ زيدان لم يكن يطاوعه .

* * *

كل هؤلاء لديهم منادر يستقبلون فيها الضيوف من أقارب أو أجانب ، وبهمهم وضع ترابيزة أنيقة ثمينة فى وسط المندرة ، وعلى وجه التحديد ترابيزتنا . كلهم لهذا ــ يؤكد أبى باستمرار ــ طامعون فى الترابيزة لكى يزينوا بها منادرهم . وهم ليسوا أفضل منا ، ولا أعرق أصلا . صحيح أننا لا نستخدم هذه الترابيزة الآن بل نخفيها تحت المتروكات ، ولكنها فى النهاية ملك لنا نستطيع ابرازها وقتما نشاء . ومن يدرى ؟ لعل الأمور تنقلب فجأة لصالحنا من جديد كما هى منقلبة الآن لصالحهم . كان أبى يكاد ينطق بهذا المعنى بكل حذافيره ، مع تحريف بسيط مهذب ، اذ كان يقول لهم كلما جاءوا بسيرة التخلص من الترابيزة :

ــ « يا اخوانا هو معقول الحالة حتفضل كده ؟ أكيد ربنا حيكرمنا ونفسنا تنفتح للأبهة ونبقى نعرضها فى المندرة مع الكراسى اللى تناسبها » !

ولم يكن يغيظه ــ ويغيظنى أيضا ــ سوى هزة رءوسهم فى تسليم مبالغ فيه قائلين : « طبعا طبعا ! أمال ! » ، كأنهم يقولون : « ابقى تعــالى قابلنى لو حصل ! » ، بلهجة تدل على أن ذلك مستحيل . غير أن أبى لم يكن يظهر غيظه أبدا ، انما كان اذا جاءت سيرة الحرب راح يصب جــام غضبه على الحرب وسنينها الســوداء وكيف أنها قلبت موازين الدنيــا فجعلت عاليها واطيها وجعلت النذل يتحكم فى ابن الأصــول والكلب يملك مصير السبع ، ثم يعرج بالحديث الى الوزارة وخيبتها وحزب الوفد وتقاعســه ورائحة الممايئة البادية فى سلوكه واستجابته لغزل الاستعمار ، ويشير الى أننا لو بقينا على هــذه الحــال سنة أخرى فلابد أن تأكل الناس بعضــها ولابد للمركوب أن يقــلب راكبــه على الأرض أو تتهــاوى به قواه .

حينئذ يرمقه عبد الفتاح الزيات بنظرة هادئة . وفى رصانة باردة يقول كأنه يقرر حقيقة دستورية :

ــ « آه ! اذن فقد جعلناك رئيسا للوزراء يا عبد الودود أفندى ! فماذا أنت فاعل ؟ هه ! أرنى الآن ماذا ستفعل ؟ أنت الآن رئيسا لوزراء مصر ! والحــالة كما ترى ! العالم يأكل فى بعضه ، ومصر غارقــة فى الوحل والعبودية والديون والجهــل

والفقر والمرض ! والمتكئين فيهـا طائفة من أصحاب الأطيـان والأرصـدة يستقوون علينا بالانجليز فى مقـابل أن يكونوا خدما للانجليز وعونا لهم علينا بالحماية الأجنبيـة ! فماذا أنت فاعل لنا يا حضرة صاحب المعالى ؟ ! » .

وكان أبى قد تأهب بالفعل لاعتلاء كرسى الوزارة ،واعتراه حماس مفاجىء اعتدل فى جلسـته عدة مرات ، وجعل ينصت لعبد الفتاح الزيات فى استعجال كأنه يستمع الى بقية المرسوم القاضى بتعيينه . ولكن يبدو أنه وجد المهمـة صعبة جدا بل مستحيلة . ولحظتها كان بجواره طرطور من الورق المقوى على شكل طرطور شكوكو اشتراه أحدنا فى العيد الفائت وانمحت زخارفه الورقيـة الملونة وبقى مجرد قرطاس سميك رأى أبى أن يحتفظ به لكى نستخدمه كقمع نفرغ فيه الجاز أو الزيت من وعاء الى وعاء . لحظة ذاك اكتشف أبى وظيفة جديدة له ، فاستخدمه كنفير ، وأمسكه قائلا لمن حوله :

ــ « تعرفوا حاعمل ايه بعد ما بقيت رئيس وزارة ؟ ! » .

قالوا جميعا فى شغف حقيقى :

ــ « تعمل ايه ؟ ! » .

وضع النفير على شفتيه قائلا :

ـ « كنت ألم الشعب كله فى ميـدان عابدين وأهتف : تحيـا الوزارة الزعلوكيـة ! قـولوا ورايا : تحيـا الوزارة الزعلوكية ! » .

ثم أزاح النفير وصاح فى الموجودين :

ـ « ما تردوا ورايا : تحيا الوزارة الزعلوكية ! » .

فلم يرد أحد . فاذا بأبى يرمى النفير فى وجوههم صائحا فى غضب حقيقى :

ـ « على الطـلاق بالتلاتة انتوا بتكرهونى ! يلا قوموا روحوا ! أنـا ما أعاشرش ناس بتكرهنى وتكره لى الخـير ! يلا اتفضلوا مع السلامة !! » .

لحظتها فتشت فى وجه أبى عن ظل للمزاح فلم أجد ، لم أجد الا غضبا عميقـا احمرت له عينـاه وامتلأتا بالحزن والألم ، والجميع يتفجرون ضحكا عميقا تنهمر له الدموع من المـآقى ؛ فاذا أبى قد ركس على ركبتيه مشـوحا كأنه يذب حشرة :

ـ « كل واحد يقوم يقهقه فى داره ! احنا مش فاتحينهـا مضحكة هنا ! يلا ! » .

فشوح محمد مصباح فى وجهه قائلا :

ـــ « على الطلاق ما احنا قايمين ! هى الوزارة بالدراع واللا ايه ؟ ! » .

وقال محمود جميل :

ــ « أما دى تنكتب فى الجرايد بصحيح ! قدر يا أخى اننا لقيناك ما تصلحش للوزارة ! نسيبك ولا نرفدك ؟ احنا دلوقت ما نوافقش على تعيينك أصلا ! » .

وفى جدية بالغة قال الشيخ كعبلها كأنه يخطب على المنبر فى كافة المسلمين :

ــ « مصيبتنا يا اخوانا أننا لا ندقق فى اختيار من يحكمنا ! يضربنا الحكام بالنعال صبح مساء فلا نفكر فى محاكمتهم أو حتى نعمل على اسقاطهم ! فمن باب أولى يجب أن يكون لنا رأى فى اختيارهم قبل اختيارهم !! » .

وبتلقائية شديدة ــ أصله على نياته ــ قال رمضان ابن عمتى وهو يرحل القوالح المشتعلة فوق حجر الدخان بتأن :

ــ « أى والله صدقت يا عم الشيخ على ! » .

فسلقه أبى بنظرة أشد لسعا من القوالح المشتعلة ، وقال فى انكسار خاطر :

ــ « حتى أنت يا رمضان ؟ والله عال ! هزلت على آخر الزمن ! والله انكم جميعا نماردة تستأهلون ما يجرى لكم ! » .

واعتدل فى جلسته جاذبا الجوزة من يد رمضان بغيظ دفين ، وراح يشفط الأنفــاس على مهل كأنه يطفىء نار التوتر فى صدره ، وظهر على وجهه كأنه اكتشف خيانة الأصــدقاء له بعد طول عشرة واخلاص .

ليلتها انتهت السهرة على غير ما يرام . اذ انصرفوا وراء بعضهم فى هدوء وتكتم ، حتى محمود جميل مدد ساقيه وترك قدميه تدوران كحدوة المغناطيس تحت الكنبة لاجتذاب بلغته الحمراء الكالحة من بين الكراكيب ، حتى اذا ما استقرت كل قدم فى فردتها تمطع فطقطقت كل مفاصــله ، ونهض ملقيــا الســلام فيما هو يمضى غير منتظر أى رد . فرد أبى من بين أسنانه . وبقى الشيخ كعبلها وحده فترة لا بأس بها ، متنحــا بوجهه المشدود كجلد الطبلة وعينيه المخرزتين المغلقتين . أغلب الظن أنه كان يريد بسكته تقديم شىء من الاعتذار عما يكون قد أساء لأبى من حديثــه الذى لم يكن يقصــد به سوى المزاح . لكنه لم يقل شيئا وظل قائما فى قعدته كالصنم ، وضوء المصباح المعلق فى السقف يعكس ظل رأســه ورقبته وكتفيه على الحائط المجاور كشاهد المقبرة . فى حين تمدد أبى على الكنبــة يتهيأ

للنوم ويتنحنح بين لحظة وأخرى مجاملة للشيخ كعبلها كأنه يجدد التحية بالنحنحة ، الى أن أخرج الشيخ كعبلها ساعته من جيب الصديرى ففتحها وتحسس أرقامها بأطراف أصابعه ثم قال : « ياه ! المشى وجب ! » ، وأنزل ساقيه عن الكنبة فنزلت قدمه فى قلب الحذاء مباشرة ، ثم سحب عصاه ومضى يترنح كبندول الساعة يمنة ويسرة فى اتجاه الباب •

* * *

العجيب أن العلاقة توترت بعد ذلك ، وكف معظمهم عن المجىء فيما عدا الشيخ زيدان وابن عمتى ، حيث يجلسون فى كثير من الصمت ، لا يتحدثون فى السياسة أبدا ، الا من قبيل التعليقات السريعة العابرة • ثم اختفى حديث السياسة تقريبا وحل محله الحديث فى مرضنا العضال ، أنا وأخى ، حيث كان الهزال يدب فى أوصالنا على مهل ، حتى صرنا جلدا على عظم ، مع انتفاخ كبير فى البطن بدأ يظهر بصورة مقلقة كأننا حوامل فى الشهر التاسع • وراح الشيخ زيدان القاضى يفتى فى أصل مرضنا مقترحا ألوانا من العلاج ، ويقرأ علينا ـ من دماغه ـ نصوصا من كتب الطب والحكمة ، وأقوالا من مأثورات المدعو أبو قراط والمدعو أبو بكر الرازى والمدعو ابن سينا • حينئذ كنت أمعن فى الانصات اليه بكل

حواسى المنتبهة برغم الهزال والخواء ، فكان يدهشنى أنه يصف بعض الأوجاع التى ألاقيها فى البطن والدماغ والكتفين والظهر فكأننى حدثته عنها من قبل مع أننى لم أكن قادرا فى الأصـل على التحدث •

وكانت أمى هى الأخرى تنصت اليه وقد انتفخ وجههـا وتشوش شعرها من فرط الانتباه والاستعداد لالتقاط كل كلمة قد يخفت بها صوته ، فيما هى جالسة بارشـة على الأرض خلف الباب الفاصـل بين المندرة والخزنة ، ويظهر شبحها من حين لحين فى تلصص اذ تقترب بأذنيهـا ، فأراها من موقعى على الكنبة المواجهة فى جلستى الأزلية وبجوارى أخى الصغير ، لاه عمـا حوله تماما ، مع أننى أسـبق منه فى المرض • وكنت أعرف أن أمى التى لا تعرف القراءة ولا الكتابة وليس فى طوقها فهم حرف واحد من كلام الشيخ زيدان المعتق ، تحـاول مع ذلك فهم كلامه بالفهلوة لكى تبادر بتنفيذ ما تفهمه من نصائحه أو على الأقل تعرف حقيقة أمر مرضنا هـذا الذى حارت فى فهمه ، أو حتى تفهم الفرق بين الأسماء التى يرسلها فى الحديث فلا نعرف ان كانت أسـماء عطـارة تدخل فى الوصفة أم أنهـا أسماء ناس اخترعوها • أما أبى فكان يستمع الى كلام الشيخ زيدان القاضى بكثير من عدم حماس الذى سمع هـذا الكلام من قبل وقرأه وتأكد من عدم جدوى الأخذ والرد فيه •

لم تستفد أمى من كلام الشيخ زيدان القاضى أى شىء . واذ أحست أن كلامه جد خطير . انما استفادت من كلمة عابرة قالها الشيخ على بقوش كعبلها الذى عاود الجىء ، اذ قال انه كان يعرف شخصا فى عزبة الطوال مرض ابنه بنفس المرض الذى عندنا ، وكان غنيا من الأعيان ، فلف به على حكماء البندر وصرف عليه الجلد والسقط بغير جدوى ، فرأى الرجل فى المنام الهاما يوجه نظره الى بيوت أولياء الله الصالحين لعلهم يتوسطون لدى الله فى رفع البلاء عن ولده ، فما أصبح الصباح حتى صحب ولده ولف به على جميع الأضرحة واستوسطهم الى الله ، فلم تمض أيام حتى تماثل الولد للشفاء .

وهكذا قررت أمى أن تفعل نفس الشىء ، فنادت الشيخ كعبلها فى السر ، وحدثته من وراء ضلفة الباب ، فوصف لها ما ينبغى علينا أن نفعله بالضبط . وفى الصباح كانت أمى قد ببتت على حمارتين من حمير أبناء عمومتى ، وبيتت على ولدين ، وبعد صلاة الفجر لفت أمى كل واحد منا فى بطانية ، وأركبتنا كل واحد على حمار ، يسنده ولد قوى ، وركبت هى خلف أخى . بدأنا بأولياء بلدتنا وهم أربعة : سيدى سليمان العجمى وسيدى هارون وسيدى مطرف بن عبد الله وسيدى على أبو دبوس . نطرق باب الضريح فيرد علينا خادم الضريح من دار مجاورة . تطلب أمى مفتاح الضريح لتضع ندرا فى

الصندوق • يجرى الخادم فيفتح ، يظل يتلكأ حتى يراها قد فكت عقدة فى عصبة رأسها وانتزعت منه عشرين خردة ــ مليمان ونصف ــ ووضعتهما فى فتحة الصندوق • ثم تطلب من الخادم حلة ماء ، فيجيء بها . فتدلقها على باب الضريح فتنظفها جيدا حتى تصير رخامتها بيضـــاء • ثم تأمرنى أنا وأخى بأن ننحنى على رخامة العتبة ، التى يدوس فوقها الناس بأقدامهم ، ونلحسها بلساننا بقعة بقعة من أولها الى آخرها • هكذا نصحها الشيخ كعبلها • وقد فعلنـــا ، ورطوبة الرخـــامة الخشنة بطعم التراب والعفن ظلت ملتصقة بلسانى طول النهار من ضريح الى ضريح • وبعد يومين قمنا بجولة أخرى فى بلدة مجاورة • وبعدها بيومين قمنـــا بالسـفر الى دســوق فلحسنا عتبة ضريح الدســوقى • وعدنا آخر النهـــار والغثيان ينفض أمعـــائى كلها كل برهـــة فلا ينقذنى منه سوى الاستغراق فى غيبوبة التعب ، فبمجرد أن أفيق يكون أول شيء أحس به هو العتب الذى انطبع فوق لســـانى •

* * *

مكثنا بعدها شهورا طويلة ننتظر معجزة الشفاء ، والمرض لا يزداد الا تمكنا ، وقد خلف لحس العتب فى لسانى بصمة محفورة لا تريد أن تنمحى ، أحاول دائما ازالتها بحك لسانى فى سقف حلقى وأســنانى دون جدوى ، وطعم التراب والعفن

يملأ خياشيمى • ولقد بات منظرنا جميعا عجبا أى عجب : أنا وأخى متكوران على الكنبة لا نقوى على الحركة أو الكلام ، نشرد فى فراغ المندرة بعيون صفراء ذابلة ، وعلى الباب تبرش أمى واضعة يدها على خدها غارقة فى الحزن والشرود ، والدموع تسح من عينيها بلا انقطاع ، وهى تتمخط وتمسح الدموع فى ذيل جلبابها الأسود الكالح ، فى حين تربع أبى شاردا يبسبس بشفتيه أغلب الظن أنه يختم صلاة طويلة ختاما لا ينتهى أبدا ، يقطعه بين الحين والحين بتنهيدة عميقة يتبعها بقوله : لا اله الا الله اللهم لا حول ولا قوة الا بالله • صرنا مجموعة من المتهمين بعد أن كنا اثنين فقط ، نجلس كلنا فى انتظار الحكم باعدامنا •

أمى لم تكن لتفقد ثقتها فى أولياء الله بسهولة ، لكنها حينما صرحت بهواجسها للشيخ بقوش كعبلها ، نبهها الى أن الأمر لابد أن يكون فيه ثمة خطأ ارتكبناه دون أن ندرى • فانبرت أمى تحكى له ـ بالتفصيل ـ ما فعلناه ، ولا تنسى أن تذكر أنها عند الولى الفلانى كانت تنوى وضع قرش كامل فى صندوق النذور لكنها لم تجد معها سوى تعريفة واحدة فوضعته على أن تعود فى يوم ما وتضع بقية القرش ، فلما جاءت عند ذكر القول بأنها كنست العتب وغسلته قبل أن نلحسه انتفض قائلا :

ـ « بس هى دى الغلطة الكبيرة ! ازاى تغسـلى عتبة مطهرة ، لازم تتلحس على وضعها ! والا فايه الفايدة يا ست هانم ؟ الولى لمـا يشـوفك غسلتى عتبته يتغاظ منك طبعـا ! اتنى لازم تصلحى الغلطة وتخلى العيال يلحسـوا العتب من غير ما تغسليه !! عشان الولى ما ينجرحش شعوره !! » .

وهكذا بات علينا أن نقوم بالعمليـة كلها من أول وجديد ، بأن نلحس العتب وهى على قذارتها ، بآثار الأقدام عليهـا . كانت عملية مرعبة ، فوجدت فى نفسى قوة على الصراخ ، لكنهم حملونى قسرا فحـاولت أن أضع فمى على العتبة موهما بأننى ألحس ، ولكن أمى كانت واقفة لى ولأخى بالمرصـاد ، تريد أن ترى منظر العتبة وقد خرجت من تحت لسانى نظيفة كالفل . ولقد زعمت بعد العتبة الأولى أننى قد تماثلت للشفاء ، وبعد العتبة الثانيـة أعلنت أننى سأستأنف الذهاب الى المدرسـة من غد .

رحبوا جميعا بهذه الفكرة . ففى الصباح ارتديت ملابسى وأنا أترنح وأتنقل بصعوبة . حملت مخـلاتى التى هجرتهـا طويلا بكتبهـا التى لم أعد أعرف فيها شـيئا . تكفلت أختى الكبرى بتوصيلى الى المدرسة ، فقطعنا الطريق اليها فى أكثر من نصف سـاعة مع أنهـا لا تبعد عن دارنا بأكثر من خمس

دقائق . وحين أتى ناظر المدرسة اشمأز من منظرى وتأفف ، واحتج بأن مقعدى قد احتله آخر وأننى قد تخلفت عن الفصل ، وموعد الامتحان على الأبواب ، فخير لى أن أستريح فى الدار حتى الشفاء ، لأستأنف الدراسة فى العام المقبل . فعدنا الى الدار ، وطوال الطريق لم أكف عن البكاء الصامت .

حين اقتربنا من دارنا جابهنا صراخ ملتاع وهيجان يتجمع أمام باب دارنا ، فما كدنا نخترق الزحام وندخل حتى فوجئنا بأمى قد صبغت وجهها بالنيلة من طين البرك ، وراحت تلطم خديها ، وتأخذ من تراب الأرض وتضع فوق رأسها ، وتنتحب ، ونساء كثيرات يحاولن اثناءها عن ذلك دون جدوى . ورجال يجعرون ويتكلمون ويصيحون فى آن واحد . كانت جثة أخى ممدودة على الكنبة كالعصا ملفوفة بالملاءة ، وأبى متقرفص بجوارها مسند رأسه على ركبتيه مندمجا فى بكاء مكتوم حارق . أفزعنى المنظر ، فاندفعت أبكى وقد تخلت أختى عنى متلهية بمنظر أمها ، فصرت أتخبط بين الأقدام فى الزحام تخنقنى العبرات وتنفض عن صدرى بعض ما تراكم فوقه من وساخة العتب .

الى أن تهاويت ولم أعد أعى شيئا أى شىء ، واذ أفقت بعد دهر طويل وجدتنى ممددا على الكنبة فى دارنا ، ولون

السواد منتشر فى كل الارجاء ، حتى وجوه الضيوف كافة قد أسودت وكثرت وعراها كثير من الحزن والسأم ، وكثرت البسملة والحوقلة وغرقت الدار كلها فى القرآن الكريم يتلوه واحد بعد آخر • فان فرغ الجميع تولى أبى القراءة فى الليل حتى مطلع الفجر •

وفى ذات يوم ميزت بين الضيوف رجلا غريبا ، فهمت أنه تاجر نحاس من البندر ، يزور بلدتنا يوم السوق من كل أسبوع ، ليلف الشوارع والحوارى حاملا جوالا على كتفه معلقا فى عامود ميزان برمانة وجنزير ، لاينى يرفع عقيرته بالصياح مناديا : « نحاس قديم للبيع ، نحاس قديم للب • • • يـ • • يع ! » • كان يساوم أمى على بيع الطشت النحاس، ويحلف لها بأغلظ الايمان أنه أكرمها فى السعر اكراما لخاطر المريض ـ يعنى أنا ـ وتحلف له أمى أن الطشت ثقيل ونحاسه نادر وأنه الطشت الذى دخلت به على أبى يوم عرسها • فيقول لها : انه اذن لقديم • فتقول له : انه اذن لعزيز وغال وما بعته الا للشديد القوى • فيقول لها ان هذه الأمور لا دخل لها فى البيع والشراء وأنه يشترى النحاس القديم ويبيعه أيضا على أنه قديم حتى ولو كان جديدا • وحين انصرف من دارنا بطشت الغسيل كانت أمى تصر طرف منديل رأسها على بضعة برايز

يتخللها أنصاف فرنكات كثيرة ، وكانت تحمد الله قائلة انها من غد ستسافر بى الى بندر دسوق لتعرضنى على الحكيم الشهير ألبير فهمى . وجعلت تداعب شعرى وتمسح عرقى باكية مبتسمة معا تقول اننى سأتفرج على البندر .

* * *

ذهبنا الى بندر دسوق ، دخلنا دارا قديمة ، صعدنا سلما متآكلا يسبح فى الظلام والرطوبة ، حتى دخلنا العيادة فأرقدنى الحكيم ذو النظارة الذهبية والشعر المفلوق اللامع والكرش الضخم والخدود الحمراء ، والسماعة المعلقة فى أذنيه .. فوق عارضة خشبية بيضاء عليها مخدة . ثم رفع ثيابى ، وصار يتحسس بطنى وضلوعى بأصابع طرية موجعة ، ويأمرنى باسما أن أتنفس بقوة ، وينقل السماعة بين أماكن متعددة من جسدى، وينصت ، ثم غطانى واستدار كالماكينة ، وفتح الحقيبة المنبسطة على ترابيزة صغيرة ، فأخرج منها دفترا صار يكتب فيه بسرعة . وأمى واقفة أمامه تنتظر أن يبلغها نبأ الشفاء فى الحال . وعلى مقربة من باب الحجرة وقف بعض أبناء عمومتى فى خجل وخشية يتابعون ما يجرى . نزع الحكيم الورقة وصار يشير لأمى بالقلم على بعض السطور ويرشدها الى أن هذا بعد الأكل وهذا قبله ، وهذا للحقن فى العضل وذاك سفوف على

ريق النوم . ثم تركها واتجه الى باب الحجرة ناظرا فى ردهة الانتظار صائحا : اللى بعده . أمى لا تزال واقفة غارقة فى الحيرة والذهول والألم ، لكنها حين رأت المريض الآخر قد وقف بجوار العارضة الخشبية ينتظر نزولى ليصعد مكانى تقدمت منى وحملتنى على صدرها خارجة .

كان أبى فى انتظارنا على مقهى تحت العيادة اذ أنه لا يقوى على صعود السلم . وكان يبدو عليه أنه يعرف كل ما جرى فى العيادة بحذافيره ، وأنه غير مقتنع به . فما أن رآنا حتى مد يده طالبا « الروشتة » . ثم فردها وبحلق فيها مع ثقته أنه لن يستطيع أن يفك منها حرفا واحدا من حروفها الافرنجية . ثم انه طواها فى سأم ومضى بنا فى نفس الشارع . توقف أمام دكان يلعلط بأضواء المعروضات ، ملىء بالفتارين الزجاجية المحتشدة بالعلب والزجاجات والبرطمانات الأنيقة ، وعلى باب داخلى فى المواجهة رسم جمجمة ، ولافتة مكتوب عليها : اجزاخانة الشفاء .

استقبلنا أفندى شاب يلبس هو الآخر نظارة طبية ، لكنه رفيع ، متوسط القامة غليظ الشفتين رقيق الصوت ، يقف خلف بنك زجاجى . قدم له أبى الورقة المسماة بالروشتة ، وشرع هو يستخرج بعض العلب من بعض الفتارين . فعاجله أبى قائلا :

ــ « من فضلك والله يا دكتور قبل ما تتعب ! أحب أعرف الدوا حيتكلف كام ؟ ! » .

فحدجه بشىء من التأفف ، وترك ما فى يده قائلا :

ــ « وماله ! » .

ثم أمسك بالقلم الكوبيا المربوط فى بكرة من الورق مكتوب عليه اجزاخانة الشفاء ، وقلب ورقة الروشتة وصار يكتب على ظهرها أرقاما ، جمعها فى النهاية قائلا :

ــ « تلاته جنيه وستين قرش ! » .

فصاحت جوقة كبيرة مكونة من أبى وأمى وأبناء عمومتى صيحة استهوال عظيمة :

ــ « يا نهار أسود !! تلاته جنيه وستين قرش ؟ ! » .

وقال أبى مشيرا الى جسدى المكوم فوق صدر أمى :

« دانا اتجوزت أمه بتلاته جنيه بس ! » .

فضحك الشاب قائلا :

ــ « خلى عنك يا حاج ! » .

وقالت أمى وهى تلهث من حملها كأنها تعرف، أنها تلعب بورقة خاسرة :

ـ « ما تقدرش يا خويه تكرمنـا فى البيعـة دى ؟ الهى ربنا ما يغلب لك وليه ! الآهى ربنا ما يوريك ! داحنا ناس غلابة وعلى قـد حالنا ! والولد يا قلب أمه حيخلص بين أيدينا !! » .

وصمت الجميع ناظرين الى الطبيب الشاب كأنهم يترقبون وقع هذه الكلمات عليه . غير أنه وسـع ابتسامته ودهنها بلون الحرج الأصفر قائلا :

ـ « مش بايدى والله يا حاجة ! دى أسـعار الحكومة محدداها ! وأنا موظف هنا ! ووالله لو كنت أقدر كنت اديكم بيلاش ! لكن ربنا يكرمنا جميعا ! » .

استدار أبى ليخرج مسرعا ، أغلب الظن ليهرب قبل أن يرى البائع دموعه ، بينما ظلت أمى واقفة فى مكانها لا تريم ، كأنها لم تسمع شيئا ، كأنها تتعشم أن يراجع البائع نفسـه . وبالفعل حدث شىء كهذا ، اذ يبدو أن الطبيب الشاب قد أشفق عليها ، فاذا هو يتبادل النظر مع رجل ضخم الجثة كان يجلس خلف مكتب على مقربة ، ثم تناول برطمانا كبيرا ، أفرغ منه مجموعة أقراص صغيرة من الكنين الأصفر الذى صرت أكرهه كره العمى ، وضعها فى كيس ورقى صغير ، وأطبقه ، وأعطـاه لأمى قـائلا :

ـ « تقدرى تدى له قرص بعد الأكل تلات مرات كل يوم ! لحد ربنا ما يفرجها ! » •

أحسست بصدمة أمى وخيبة أملها وعدم ثقتها فى هـذه الأقراص • مع ذلك ابتسمت وتناولت الكيس قائـلة فى نبرة مرتعشة كذبذبة الكهرباء فى أعصاب العروق :

ـ « روح الهى ما تقف وقفتى ولا تحتـار حـيرتى ! الهى ربنا ما يوقعك فى ضيقة ! ولا يذلك لمخلوق !! » •

وكنت أحس أن أمى تقصـد العـكس تماما ، وكان صوتها ملتاعا ورنانا يأخذ طريقه الى السماء مبـاشرة • وظل صوتها يكنس الشارع بما لم أفهمه حتى وصلنا الى محطـة القطار ، وهى تعدلنى على صـدرها كل برهة ، وقدماى يتخبطان فوق فخذيها ويعرقلانهـا فى كل خطوة ولا تقبل مع ذلك أن يحملنى عنها أحد ، وتقول لى :

ـ « المحطة اهه يا حبيبى ! مش حتتفرج على القطر ؟ » •

وارضاء لها فحسب طلبت أن أمشى ، فتركتنى • وكان أبى قد سبقنا الى شباك التذاكر فقطع لنا تذاكر وقطع لى نصفا ، فلامته أمى على ذلك بحجة أننى صغير ومريض • فقال لها ان ذلك أفضـل من أن يطوقنا الكمسارى بضعف الثمن • صعدنا السلم الذى نهبط منه على رصيف الركوب • جلسـنا على

دكة خشبية خضراء وسط صخب وضجيج مبهج ، وأمى لا تكف عن التحدث مع من حولها من سيدات ، وفى كل دقيقـة تعيد حكاية أمرى وأمر أخى المرحوم من طقطق لسـلامو عليكم ، وتتلقى الدعاء لى بالشفاء ، وترد قائلة :

ـ « احنا واتنى ياختى ! ربنـا ما يوريكى ولا يصهد قلب حد أبدا ! » .

وفى هذه المسافة وحدها أهرقت من الدمع ما يصنع أبحرا حتى تمنيت الشفاء اكراما لخاطرها قبل أن تفقد عينيها .

* * *

تكررت زيارة تاجر النحاس لدارنا عدة مرات ، حتى لم يعد فى دارنا شيئا يمكن أن يباع . ومع ذلك لم تتمكن من صرف الروشتة كاملة . الى أن أنقذنا الله بمجىء ستى « فله » ، أم أمي ، التى تزوجت فى البندر بعد موت جدى ، أب أمى . هى امرأة جميلة ، أجمل من أمى بكثير ، فطول عمرها تعيش فى البندر ، وتستحم على الدوام ، بعكس أمى التى يعلوها الصدأ باستمرار ، وتنتهكها الهموم . وستى لم تنجب سـوى بنتين تزوجتا فى سن مبكرة ، فبقيت ستى مدة بلا زوج ، فخشيت على نفسها من الفتنة فتزوجت رجلا يقال انه تاجر كبير ، قمسيونجى

معه فلوس على الدوام ، ويأكل اللحمة والأرز كل يوم ، ويأكل الفاكهة التى توصف عندنا للمرضى فحسب من ذوى اليسار ، ويلبس كل يوم جلبابا نظيفا غير جلباب الأمس . أما ستى « فلة » فانها طويلة القامة نحيفة القوام واضحة الأنوثة لا تعترف بسنين العمر ، ولهذا فان زوجها يعشقها ويتمنى رضاءها ، ولا يؤخر لها طلبا ، أى أن مرواحى معها لن يتسبب فى ضيقه بل على العكس سيرحب بى كل الترحيب شأن العاشق الذى يرحب بمن يحمل رائحة الأحباب . هكذا قالت لأبى بكل وضوح وهى تبتسم عن سن ذهبية ، حينما راجعها فى أمر سفرى معها وبقائى عندها عدة أيام كما طلبت هى .

* * *

ذهبت مع ستى « فلة » الى بندر مطوبس ، حيث كان زوجها المعلم « حميده الجارحى » فى انتظارنا على رصيف المحطة ، ليحمل عنا قفة الزيارة التى حملتها ستى من بلدتنا ، فيها أرز وبيض وسمن وجبن قديم وبعض فطير مشلتت وملوخية ناشفة . وفى الواقع فان ستى « فلة » هى التى اشترت هذه الأشياء من حر مالها ، لكن توهم زوجها أن ابنتها ـ أمى ـ هى التى حملتها هذه الزيارة من دارها .

رجل ضخم الجثــة كشجرة الجميز ، تخين الكتفــين ، مكلبظ الوجه غليظ الملامح ، لكن ملامحه طفلية الى حد كبير . اذا ابتسم نبتت له غمازتان فى صدغيه ، وانفرجت شفتاه عن أسنان كلها من الفضــة ، مصبوغة بلون الدخان والشاى . صوته أغلظ من جسمه ، لكنه منطلق بغير التواء كأنه الهواء النقى . ما أن رآنى حتى حملنى وربت على ظهرى فى عطف وحنان قائلا :

ــ « ماله الولد ده صحته مدعبلة كده ليه ؟ ! يا ستار يا رب !! » .

وقالت ستى فلة :

ــ « عاوزين نوديه المستشفى بكره ! » .

قال على الفور :

ــ « ايوه بس أنا مش حافضى الأسبوع ده ! » .

قالت ستى :

ــ « أنا اللى حاروح بيه ! » .

قــال :

ــ « بالشفا ان شاء الله ! » .

ونادى حمالا على كتفه رقم نحـاسى ويرتدى جلبابا أزرق وضع القفة على كتفه ، وتقدمنـا فصعدنا السـلم وهبطنا الى شوارع البلد الممتلئة بالعربات الكارو وعربات الحنطور التى تخب على الأرض وتطـلق الأجراس • كان المسـاء قد هبط فامتلأت الشـوارع بأضـواء الفوانيس المعلقة فوق عواميد طويلة وعلى أصداغ البيوت العاليـة ذات الشرفات الخشبية والمشربيات وفوق المـآذن والقباب ، ورائحـة أم الفـلافل الساخنـة تنتشر مختلطة برائحة مازوت القطـارات وأدخنـة السيارات التى تعوى بزمامير كالجعير الخشن •

أبهجنى المنظر حتى نسيت وجع البطن والصداع • توقفنا أمام بيت قديم متهالك فى أعماق حارة سد ضيقة • دخلنا بابا ينفتح على دهليز مستطيل تطل عليه مجموعة أبواب لقاعات ، وثمة نساء يجلسن أمام الأبواب يغسلن الثياب فى طشوت ، واحداهن واضعة أوزة تحت فخذها الممدد العـارى وراحت تزغطها بأصابع كأصابع الكفتة ، وأخرى جالسة تخيط شرابات بالية • صعدنا سلما ضيقا حلزونيـا ، لنصل الى بسطة قادتنا الى ردهة أخرى ، مشينا فيها قليلا ، ثم توقفنا أمام باب بضلفتين مغلق بقفـل كبير كالح • أخرج زوج ستى مفتاحـا مربوطا فى كتينة ، ثم فتح القفل ودفع الباب فانفتح • أزاح القفة ثم دفعها

فدخلت . دخلنا فى ظلام دامس . مدت ستى يدها على رف صغير محندق فى أعلى الجــدار ، ورفعت مسمار شريط المصباح نمرة خمسة . وأشعل زوجها عود كبريت ، على ضــوئه رفع زجاجة المصباح وأشعل الشريط فارتفع الهباب فوضــع فوقه الزجاجة وضبطه لينتشر الضــوء الأصفر ويغمر الحجرة .. هناك سرير بعمدان سوداء فوقها عساكر صفراء ، وله ناموسية مفرودة وموروبة الباب كالغرفة السرية . بجوار السرير دولاب للملابس بضلفتين . وفيما بينه وبين السرير وضعت كنبــة منجدة ولها مساند .

خلع زوج ستى جلبابه الصوفى وطربوشه وارتدى جلبابا منزليا رقيقا مقلما ، وطاقية من نفس قماشــه ، ثم جلس فوق الكنبة بجوارى قائلا لى :

ــ « أهلا وسهلا شرفت ! » .

فلم أرد ، بل نكست رأسى فى خجل . وقالت ستى :

ــ « قول له كترخيرك يا ولد ياحمار ! » .

فلم أرد ، فربت على ظهرى قائلا :

ــ « ربنا يشفيك ان شاء الله ! » .

تقرفصت ستى ودخلت تحت السرير ، فسمعت كركبة ، وخرجت بعد برهة حاملة وابور الجاز البريموس ، وحلة وطاسة . أعطت الوابور نفسا ثم أشعلته ، وفتحت القفة فأخرجت البطة المذبوحة ووضعتها فى الحلة وراحت تجهز العشاء . أما زوجها فقد تربع بجوارى على الكنبة وراح يلف السجائر بعد أن يفرك على دخانها أوراقا خضراء جافة عرفت من مندرتنا أن اسمها البانجو ، ويجىء من السودان .

بعد ساعات طويلة تعشينا . كان زوج ستى يطوح نسائر اللحم فى فمه بسرعة فائقة ويغمزنى كل حين بنسيره ولكن الطعام لم يكن له أى طعم فى فمى . غسل يديه فى مكانه على الأرض بجوار الطبلية ، وشرب الشاى ثلاثة أدوار ، ودخن عشرات اللفائف ، وقام فأخرج من الدولاب بطانية من بطاطين الجيش وقال لى :

ــ « ستنام على هذه الكنبة ! يلا ! » .

ومددنى ، وطرح البطانية فوقى وقال لستى :

ــ « يلا يا مره ! » .

فقامت ستى فأزاحت الأوعية تحت السرير ، وخفضت شريط المصباح فأحكمت خيمة الليل علينا ، ثم لحقت بزوجها

فوق السرير ، وفكت عقـدة الناموسـية فانغلقت تماما • بعد دقائق رحت فى النوم ، لكننى تيقظت بعد فترة على صـوت هزهزة ووشوشة وزيق خشب يصطك فى خشب ، ففتحت عينى ، فرأيت الناموسـية تتماوج والسرير يهتز بقوة ، وصوت ستى يتأوه وكأنها تبكى وتنهنه تحت ضغط شديد يثقل صدرها • فخيل الى أن الرجل يضربها بعنف وأننى لابد أن أكون السبب ، فاذا بى أصيح من تحت البطانية :

ـ « ستى ! يا ستى ! » •

فكفت الأصوات كلها فى الحال ، وخيم على الحجرة صمت مريب ، فحاولت النوم فلم أستطع ، الأكلان راح يدب فى جميع أنحاء جسدى كأن براغيث الدنيا كلها تهاجمنى فلا أملك لها دفعا • صعدت شخيرا استجلب به النوم ، فاذا بالأصـوات تعود من جديد ، تبدأ خافتة أول الأمر ثم تشتد وتشتد حتى خيل الى أن مذبحـة تجرى خلف الناموسـية فاذا بى أصيح من جديد :

ـ « ستى •• يا ستى ! » •

وكررت ندائى عدة مرات ، فاذا بصوتها يجىء من خلال نوم مصطنع ، ونبرة غيظ دفين :

ـ « عايز ايه يا ولد ؟ ! » •

قلت :

ـ « عايز أروح الكنيف ! » •

سمعت تأتأة وحركة احتجاج وغيظ • فجأة وجدتها تهبط عن السرير تلف جسدها بجلباب مفتوح كالعباءة ، رفعت شريط المصباح وحملته فى يدها قائلة بغيظ دفين :

ـ « يلا قوم ! » •

فقمت ، وخرجت وراءها ، فمشينا على ضوء المصباح فى الردهة حتى آخرها • دخلنا بابا تتصاعد منه رائحة النتن والظلام الدامس • قالت ستى وهى تقرب المصباح من الأرض لتكشف لى عن فتحة الكنيف قائلة : « اقعد ! » • فجاهدت حتى تمكنت من التوازن فوق الملاقى • ورغم أننى لم أكن راغبا فى التبرز فاننى ما ان جلست حتى تبرزت بالفعل ، وستى واقفة بالمصباح على الباب تصيح بى كل دقيقة : « يلا يا واد اخلص ! » ، فقمت رافعا سروالى تاركا جلبابى يهبط الى قدمى • ومشيت خلف ستى الى الحجرة ، حيث مددتنى على الكنبة من جديد وأحكمت لفى بالبطانية وصعدت هى الى السرير • وبعد دقائق صعدت شخيرى ، فبعد دقائق عادت الأصوات المريبة ، وسمعت زوج ستى يهمس لها « كنت مرتاحة

جبت لى حاجه ! مش حينفع الكلام ده ! » وترد ستى : « يومين تلاته وحيروح ! » •

ما صدقت ان طلع النهار فقمت جالسا ، وقام زوج ستى ، فتناول افطاره ، وسحب من تحت السرير خرجا كبيرا متخما ببضائع من أصناف الخردوات ، حمله على كتفه وتوكل على الله • وارتدت ستى ثيابها ، ولفت نفسها بالملاءة السوداء ، ولبست « الشكربين » الأسود فى قدميها ، والبستنى ثوبى النظيف ، وانطلقت بى الى مستشفى البندر الكائنة خارج البلدة بين الغيطان • قطعنا تذكرة من الشباك بقرشين ، وتلطعنا فى حوش المستشفى فترة تزيد عن ساعة زمن ، نودى على بعدها ، فانتفضت ستى مهرولة تسحبنى من يدى فأحاول اللحاق بها وبطنى تتدحرج أمامى كالقربة •

قدمونى الى طبيب كالح الوجه مكشر الملامح دائم التأفف، فعل بى نفس ما فعله ألبير فهمى فى دسوق ، ثم نحانى وكتب ورقة صغيرة أرفقها بالتذكرة الكبيرة الخضراء بعد أن كتب على الأخيرة شيئا سريعا ، أعطاها لستى • فسحبتنى وذهبنا الى شباك آخر فى بناية أخرى بعيدة • ثم قفلنا عائدين نحمل زجاجة خل مليئة بمزيج الحديد ، وبعض أقراص صفراء ، وأخرى بيضاء • وفى الطريق تذكرت ستى أن الطبيب قد أوصى

بالامتناع عن قائمة طويلة من الطعام لم أسمع بها من قبل ، وعن مشروبات عمرى ما سمعت بها ، ولا أظن أن ستى قد فهمت منها شيئا وان ظلت تتابعه قائلة : حاضر يا بيه ! حاضر يا بيه ! ..

تكرر الصخب الليلى خلف الناموسية ، وتكررت صيحاتى بطلب التصبير ، حتى ضاقت بى ستى « فلة » أشد الضيق فما صدقت أن انتهى الأسبوع ونفد الدواء وذهبت بى الى الاستشارة ، حتى بادرت فى اليوم التالى ، فألبستنى ثيابى النظيفة ، وغمزتنى ببريزة فضية ، وسلمتنى الى زوجها ، الذى اصطحبنى الى محطة القطار فقطع لى تذكرة دفع ثمنها من محفظته الكبيرة التى تعج بالقروش الفضية ، ووصف لى كيف أغير القطار فى محطة دسوق ، وأوصانى بتفتيح العين والانتباه للمحطات والا سار بى القطار الى ما لا نهاية وتكون البهدلة ، ووصف لى كذلك كيف أركب من دسوق لأنزل فى محطة البكاتوش بعد ثلاثة محطات ، وفى البكاتوش لابد أننى سأجد ناسا من بلدتنا معهم ركائب فأركب معهم الى بلدتنا مسافة ستة كيلو مترات .

* * *

وصلت الى دارنا قرب الظهر ، وكان التعب قد هدنى ، مع أن رجلا من بلدتنا صادفنى على المحطة فاركبنى خلفه على

ظهر حماره ، فكانت بطنى المنتفخة تحك فى ظهره طول الطريق فتؤلمنى وتضايقه •

دخلت دارنا فرأيت ضوء الشارع يفرش المندرة قادما من الخزنة الخلفية • ارتميت فى صـدر أمى واندفعت فى البكاء فصارت هى الأخرى تبكى بكاء مرا • حكيت لها كل ما جرى ، فاستمعت اليه بمزيد من البكاء • ولم يكن أبى موجـودا ، فسألتها عنه ، فقالت انه ذهب يبحث عن سيد جودة البناء ليرمم لنا جدار الخزنـة فتسللت من حضـنها الى الخزنة ، فهـالنى ما رأيت • كان الجدار المجاور للترابيزة قد انهار فوقها بجزء كبير من السقف ، فغاصت أقـدام الترابيزة فى الأرض فتهشم سطحها فهبط بما فوقه من أحمال على ما تحته من مخزونات ، وعرق من الخشب منكسر وغائص فى جوف الأحمال والأتربة ، وقضيب من حديد السقف منطرح فوقه وطرفه الأخير لايزال معلقا فى أعلى الجدار •

وقفت أمام ذلك المنظر تأكلنى الحسرة • وجـاءت أمى فوقفت بجانبى تبكى وتصف لى كيف انهار الجـدار بسقفه فجأة ، وكيف أن أبى قد هزمه الحادث وقطع قلبه أكثر من حزنه على موت أخى ، ليس لوقوع الجـدار بالطبع بل حزنـا على الترابيزة التى لم يرض ببيعها لعلاجكما ، والتى كان يعزهـا

معزته لماضيه وماضى عائلته ، والتى لم تكن لتذوب على مر الزمن لولا أنه ـ كما يقول ـ الحسد وقر الناس عليها ، لقد استخسروها فينا ونحن أبناء عز قديم ، فجاءوا بأجلها مثلما جيء بأجل أخى المسكين • وصارت تحمد الله ان الجدار وقع فى النهار حيث لم يكن أحد ينام تحته •

فجأة دخل أبى ومعه سيد جودة البناء وبعض رجال • فلم ينتبه أبى الى ، بل راح يشرح للبناء كيف يمكن معالجة الجدار • وقد راح سيد يلف ويعاين ، ويقول ان مياه الكنيف المجاور للخزنة هى التى خلخلت الجدار ، اذ أن خزان الكنيف داخل تحته مباشرة ، ولابد من كسحه أولا قبل الفحت والبناء . ويا حبذا لو ردم هذا الخزان وتم فحت خزان آخر فى مكان بعيد • كان أبى يستمع اليه والهم يكاد يقتله • ثم ان سيد أمر فى الحال برفع الأتربة ، فانبرى رجاله وبعض أبناء عمومتى بالفئوس والكريكات والغلقان يرفعون القضيب الحديدى والأتربة ، فامتلأت الدار كلها بالغبار ـ والدخان •

استمروا ساعات طويلة على ضوء المصابيح التى استعرناها من أقاربنا • وكان أبناء عمومتى يشتغلون بهمة كبيرة حتى ينتهوا من تجهيز الوضع للبناء ، اذ أنهم فى الصباح وراءهم شغل فى حقولهم • وأبى كان ملهوفا على الانتهاء من رفع الركام

ليطمئن على الترابيزة ، فما ان بدأ سطحها يظهر ، ويتمكن الرجال من نزع أرجلها من الأرض حتى اندفع يجرى نحوها يعاينها ، فاذا هى أربع قطع ، واذا العفن والسوس قد رتعا فى أركانها التحتانية ، واذا الأرض من تحتها مليئة بالسحالى والثعابين والعقارب والفئران والقروش الصدئة وأشياء غريبة لا حصر لها • انشغل الرجال فى تصيد الحشرات والزواحف وقتلها قبل أن تجد لنفسها مأوى آخر داخل الدار • وانشغل أبى فى مراقبة الأتربة والكراكيب التى كانت تحت الترابيزة ، وراح يوصى بوضعها فى كومة أمام الدار حتى نأتى فى الصباح بمنخل وننخلها ليظهر ما قد يكون فيها من أشياء كثيرة وقعت ذات يوم تحت الترابيزة واختفت •

بعد صلاة العشاء بزمن طويل جلس أبى مسندا رأسه بين كفيه يفكر فى هذه المصيبة التى لا يملك من تكاليفها مليما واحدا • وكان سيد جودة البناء يعرف هذا جيدا ، فاذا به يفاجىء أبى قائلا :

ـ « صلى ع النبى يا عم الحاج زعلوك ! أنا عارف انك معذور اليومين دول ! بس أنا عندى حل يريحك ! » •

رفع أبى وجهه متنفسا كأنه أنقذ من الغرق ، قال :

ـ « خير يا سيد ؟ قول ! » •

قال سيد :

ــ « أرجع لك الجدار والسقف زى ما كان ! وآخد الترابيزة دى أجرتى ! وأنا ونصيبى ! حاصلحها واحطها فى دارى! ما تنساش انها حتكلفنى تصليح وجايز ما تنفعش !! » .

حدجه أبى طويلا فى شرود صامت ، انه يعرف أن سيد جودة البناء ولد شاطر ، فهو بناء ونجار ومقاول وحداد وفى يديه سبع صنايع ، ولسوف يتمكن من تصليح الترابيزة بلحم ألواح سطحها واعادة تسميرها فى الأرجل ، وربما أعادها كما كانت . ظل أبى يفكر طويلا ، الى أن استعجله سيد قائلا وهو يقف مستعدا للانصراف :

ــ « واللا بلاش ! أنا آخذ أجرتى صاحية أحسن ! أنا حتى عندى ترابيزة كويسه والمندرة مليانه عفش ! » .

فقال له أبى :

ــ « على كل حال أنا موافق ! اتكل على الله ! ربنا يملاها لك بركة ! » .

فصاح سيد فى رجاله :

ــ « شيلوها يا رجاله روحوها للدار ! » .

فرفعها الرجال ومضوا ، فاذا هى تبدو من باطنها الداخلى جديدة ناصعة رغم السوس فى الأركان • كاد أبى يصرخ صائحا ان اتركوها لكنه حول وجهه عنها • وحين اختفى بها الرجال وضع يديه على وجهه وانفجر فى بكاء شديد حارق • وكانت هذه أول مرة أرى فيها أبى يبكى كالنساء ، فانزويت مع أمى واخوتى فى ركن قصى ورحنا نبكى لبكائه حتى مطلع الفجر • فما كاد ضوء النهار يبص من فوق الجدران والنخيل البعيد حتى رأينا عبر الباب الموارب أشباحا تتسلل فى الخفاء ، لصبيان ونساء ورجال جاءوا من أماكن بعيدة ، وانكبوا فوق كوم الأتربة أمام دارنا وراحوا ينكشونه بحثا عن الأشياء التى كانوا يسمعون منذ وقت بعيد أنها وقعت تحت ترابيزتنا • ولسنا ندرى كيف بلغهم نبأ سقوط الترابيزة بعد هذا العمر الطويل • وكان أبى قد استسلم لسنة من النوم ، فخرجت أمى حاملة بلاص الحمام المملوء بماء تتن ، وصارت تقذف بمائه الأشباح لاعنة صارخة ، فاندفعوا يجرون كسرب من العصافير المذعورة •

* * *

ثم ان الأيام قد مرت ، وارتفع الجدار من جديد دون أن ينتقل خزان الكنيف من مكانه ، ولكن الخزنة اتسعت وصارت

أرضها نظيفة . الا أننا مع ذلك نقلنا مكان نومنا الى المندرة تفسها فى الصيف ، وفى الشتاء ننتقل الى قاعة فى الداخل كالعادة .

وكان موعد ابتداء الدراسة قد صار على الأبواب ، وكنت قد بدأت أضيق بالقعدة فوق الكنبة ، وأجرؤ على المشى فى الخلاء بعض خطوات ، لاستريح على احدى المصاطب فى الشارع العمومى ، لكن بطنى المنتفخة كانت تثقل خطواتى ، فأقفل عائدا الى مصطبتنا أمام دارنا .

وذات يوم كنت جالسا على هذه المصطبة مع شوشة ابن عمى ، الذى كان يروح المدرسة معى وقد أصبح يسبقنى بسنة . كانت أمى تغريه بقطعة حلوى وحفنة ترمس لكى يجلس معى وينقل لى أخبار ما تعلموه فى الفصل فى غيبتى ، حتى يشغلنى عن الوجع ، وفى نفس الوقت يجدد المدرسة فى دماغى .. واذا بامرأة غجرية عجوز تمر حاملة سفطا على رأسها تنادى :

ـ « أضرب الودع والرمل واشو .. و .. و .. ف ! ».

فنادتها أمى لتشوف بختها ، وهى فى الواقع تريد أن تعرف من هذه المرأة ما سوف يحدث لها من كوارث مدخرة ،

وهذه الأحداث تتعلق بى أنا . انحطت المرأة جالسة فى الحال ، وأخرجت حفنة رمل وقوقعة وبعض أوراق الكتشينة وطلبت اسم أمى واسم أمها .

فأجابتها أمى . وشرعت العجوز تقلب فى الرمل ، فاقتربت أنا منها لكى أرى ماذا تفعل وماذا تقول .

حدقت المرأة فى وجهى ومصمصت شفتيها فى أسف وقالت :

ـ « يا حبة عينى ! الولد ده عيان بالطحال !! » .

قالت أمى فى سرعة ولهفة :

ـ « بتقولى ايه يا اختى ؟ ! » .

قالت المرأة :

ـ « العارف هو الله ! لكن طحال هذا الولد منتفخ منذ وقت طويل ! يكاد والعياذ بالله ينفجر !! » .

فبكت أمى على الفور قائلة :

ـ « دخنا بيه على الحكما ! » .

قالت الغجرية فى ثقة مذهلة :

ـ « شفاؤه على الله وعلى ! » .

قالت أمى :

ــ « يبقى لك حلاوة كبيرة قوى ! قوى ! »

قالت الغجرية :

« ارمى بياضك ! »

فرمت أمى لها بقرش صاغ كامل ، وحفنة أرز ، وبيضتين وثلاثة أرغفة .

قالت المرأة :

ــ « شوفى يا بنت اخوى ! تجيبى قزازة خل ! وتجيبى حتة خميرة ! تحطى الخميرة فى فنجال مليــان خل ! وتحطى الفنجال بالخل والخميرة فوق سطح الدار يسمع التلات أدانات : المغرب والعشا والفجر ! وتخلى المحروس ده يشرب فنجــال الخل بالخمــيرة على ريق النوم الصبح ! تلات تيام ورا بعض أول كل شهر عربى ! لمدة تلات شهور والباقى على الله ! وفى الشهر التالت حافوت عليكى عشان آخد الحلاوة ! » .

قالت هذا فى ثقة شديدة ، ثم نهضت حاملة سفطها ومضت تنادى : أضرب الودع واشوف البخت واشو .. و .. و .. ف .

لم تكن أمى واثقة من كلام الغجرية ، لكنها قالت : مش حنخسر حاجة ، وظلت تحسب لقدوم أول الشهر بفارغ الصبر

حتى اذا ما جاء اليوم الأول نفذت ما قالته الغجرية بكل دقة ، ناولتنى الفنجان المرطب بالندى ، وقطعة حلوى ، ثم قسرتنى على تجرعه وألقمتنى قطعة الحلوى وراءه فى الحال •

فى اليوم الثالث من الشهر الأول شربت الفنجان وحدى بغير مدافعة • وفى نهاية الشهر كانت بطنى قد هبطت قليلا وزال عنها بعض الانتفاخ • وفى اليوم الأول من الشهر الثانى كنت أنا الذى يملأ الفنجان ويضعه فوق السطح ، وأقوم مبكرا لأدلقه فى جوفى سواء توفرت قطعة الحلوى أم لم تتوفر • وفى نهاية الشهر الثانى كنت قد تمكنت من الذهاب الى المدرسة وحدى وقد زال انتفاخ بطنى تماما • وفى الشهر الثالث كانت أمى تبحث عنى فتجدنى ألعب الكرة الشراب فى الجرن كالعفريت •

واصطلح أبى مع صحابه فاستأنفوا السهر فى مندرتنا ، حيث يتكلمون فى الثورة التى قامت فجأة ، وعن الملك فاروق الذى أزيح عن عرشه ، وعن محمد نجيب الذى أعلن الجمهورية وترأسها • وحين كانت الذكريات تجرهم الى الحديث عن الترابيزة الشهيرة كان أبى يبتسم قائلا : الملك فاروق نفسه انزاح عن عرشه ! سبحان من له الدوام •

« تمت »

صدر من هذه السلسلة :

● الرجل المناسب	(قصص)	فتحى غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	ابو المعاطى ابو النجا	٣
● بالامس حلمت بك	(قصص)	بهاء طاهر	٤
● رباعيات	(قصص)	شكرى عياد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمال الغيطانى	٧
● رشق السكين	(اقاصيص)	محمد المخزنجى	٨
● وعلى الأرض السلام	(قصص)	فاروق خورشيد	٩
● الاشواق والأسى	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● ان تنحدر الشمس	(قصص)	سحر توفيق	١٢
● لا تسقنى وحدى	(رواية)	سعد مكاوى	١٣
● كهف الأخيار	(قصص)	شكرى عياد	١٤
● محطة السكة الحديد	(قصص)	ادوار الخراط	١٥
● حصار القلعة	(م شعرية)	محمد ابراهيم ابو سنة	١٦
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقى	١٧

- اربعة فصول شتاء (قصص) محفوظ عبد الرحمن ١٨
- انا الملك جئت (قصص) بهاء طاهر ١٩
- تاريخ حياة صنم (قصص) عبد الرحمن فهمى ٢٠
- الوداع : تاج من العشب (قصص) عبده جبير ٢١
- النجوم العالية (اقاصيص) محمود الوردانى ٢٢
- قلوب خالية (رواية) عبد الرحمن الشرقاوى ٢٣
- الشجرة والعصافير (قصص) ابراهيم عبد المجيد ٢٤
- عطشان يا صبايا (قصص) سليمان فياض ٢٥
- طرف من خبر الآخرة (رواية) عبد الحكيم قاسم ٢٦
- طعم القرنفل (قصص) جار النبى الحلو ٢٧
- السحر الأسود (رواية) شفيق مقار ٢٨
- تسلق الجدار الأملس (رواية) حسنى عبد الفضيل ٢٩
- احتضار قط عجوز (قصص) محمد المنسى قنديل ٣٠
- رحلة الليل (قصص) عبد الله خيرت ٣١
- حبات النفتالين (رواية) عالية ممدوح ٣٢
- ارض لا تنبت الزهور (مسرحية) محمود دياب ٣٣
- الخوف (قصص) عبد الفتاح الجمل ٣٤
- ما اجملنا (مسرحيتان) محفوظ عبد الرحمن ٣٥
- لم يعد الضحك ممكنا (قصص) يوسف القعيد ٣٦
- جبال السام (قصص) فاروق خورشيد ٣٧
- الحنان الصيفى (قصص) احمد الشيخ ٣٨

● الفيوم ومنابت الشجر	(روايـة)	عبد العزيز مشرى	٦٠
● الصخرة والطوف	(مسرحيات)	فـؤاد التـكرلى	٦١
● نورسان ابيضان	(قصـص)	نعيم عطيـة	٦٢
● ستر العورة	(قصـص)	سعيد الكفراوى	٦٣
● الوجة الآخر للقمر	(قصـص)	محمد سليمان	٦٤
● سـفر	(قصـص)	محمد المخزنجى	٦٥
● رجال من الرف العالى	(قصـص)	سليمان الشطى	٦٦
● رايت النخـل	(قصـص)	رضوان عاشور	٦٧
● ليلة حب مجنونة	(قصـص)	ليـلى العثمان	٦٨
● المستحيل والقيمة	(تجربة فى الديالكتيك)	بدر الديب	٦٩
● النعيم الصائم	(مسرحية)	توفيـق الحـكيم	٧٠
● شمس بيضـاء	(قصـص)	محمد عبد السلام العمرى	٧١
● ديوان الملحقات	(قصـص)	عبد الحكيم قاسم	٧٢
● شـتاء داخلى	(قصـص)	احمد زغلول الشيطى	٧٣
● حكايـة شـارعنا	(روايـة)	وجيـه الشربتلى	٧٤
● اذعـان صغير	(قصـص)	فهـد العتيـق	٧٥
● منحنى النهـر	(قصـص)	محمد البساطى	٧٦
● العشق اوله القرى	(قصـص)	ابراهيم فهمى	٧٧
● اغـلاق النوافذ	(قصـص)	ابراهيم عبد المجيد	٧٨
● اجنحة الحصان	(قصـص)	هـالة البدرى	٧٩

الأعـــداد القادمـــة :

● لحس العتـب (روايـة) خيرى شـلبى
● احـاديث جانبية (قصص) جميل عطيه ابراهيم
● شدو البلابل والكبرياء (قصـص) فـؤاد قنـديل
● الزائــــر (مسرحية) احمـد الحـوتى
● ساعات الكبرياء (قصـص) ادوار الخـراط
● تلك الأشـيـاء (قصـص) سـامى فريـد
● احتمـــالات (قصـص) محمود جندارى
● رجل فى القلعة (مسرحية) محمد ابو العلا السلامونى
● الكـــرز (قصـص) ليـلى الشربينى
● ســالومى (مسرحية) محمـد سلماوى
● غـزو الارانب (قصـص) نبيل عبد الحميد
● مجرى العيون (قصـص) سـعيد الكفراوى
● الكابـوس (مسرحية) لينين الرمـلى
● ام الشـعور (قصـص) حسـام فخـر

الأعداد الممتازة القادمة :

● المعذبون فى الأرض	(روايــة)	د. طــه حسين
● قنطرة الذى كفر	(روايــة)	د. مصطفى مشرفة
● خيوط العنكبوت	(روايــة)	ابراهيم عبد القادر المــازنى
● ابراهيم الثــانى	(روايــة)	ابراهيم عبد القادر المــازنى
● نائب عزرائيــل	(روايــة)	يوســف الســباعى
● فســاد الأمكنــة	(روايــة)	صــبرى مــوسى
● قصص مختارة	(قصــص)	يوســف ادريس
● الجبــــــل	(روايــة)	فتحى غــانم
● قصص مختــارة	(قصــص)	يوسف الشــارونى
● اغنية الرياح الأربع	(دراما شعرية)	على محمود طه
● بحيرة المســاء	(قصــص)	ابراهيم اصــلان

تطلب كتب هذه السلسلة من :

● باعة الصحف

● مكتبات الهيئة

● معارض الكتاب بداخل مصر والخارج

● المعرض الدائم للكتاب

● مكتبات الهيئة المتنقلة بالاحياء والاقاليم

رقم الايداع ١٠٧٥٠/١٩٩٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3597 — 6



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

فى بساطة وتلقائية ماكرتين يسكب خيرى شلبى حكايته فى هذه الرواية القصيرة كأنها تندفق فى دفعة واحدة من فوهة كبيرة حاملة كل ما وجدته مياهها فى طريقها من الأشياء : البيت الذى انهار عزه القديم ووقف متحاملاً بأطلاله وبقاياه ؛ أو صاحب البيت الصبور المتماسك بحلمه الصعب فى استعادة العز ؛ والولدان المريضان تأكلهما العلة وتحاصرهما الخرافة الجاهلة والفقر وقلة الحيلة ؛ والرجال أصحاب الأب بحكايات حياة كل منهم ومشاغله وشهواته وأحزانه ومعارفه وانتصاراته وهزائمه ونكاته ومخاوفه ، والأم الخادمة الزوجة الممرضة الداعية تتحين فرصة أو وسيلة لهزيمة الحزن والمرض والفاقة .. بالدعاء أو بـ « لحس عتب أضرحه المشايخ أو بكيمياء الشعب وصيدلته القديمة التى يزيد فيها حجم « العلم » عن حجم « الخرافة » فتنقذ للمستقبل أملا . والحكاية أيضاً تحمل فى تدفق مياهها التاريخ والسياسة والجنس والدين والعالم والطبقات والأحزاب : كيف يحبس خيرى شلبى كل هذا فى صفحاته القليلة وكيف ينسق هذا كله فى تلقائية ماكرة وببساطة من اعتاد أن « يعلم بالأمثال » وأن يعيد إلى الحياة الأشياء والأحداث محكية بالكلمات وأن يضع « العامى » فى اللحظة أو فى المكان حيث لا يغنى بدلاً منه معجم الفصحى كله : فى حكاية خيرى شلبى هذ[illegible] تبصر العيون وتتذوق الألســـنة ما تجسده الكلمات ، دون [illegible] تفقد سحر البيان ودون أن تفتعل لا التلقائية ، ولا السح[illegible]

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب